ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Prof. Dr. Saad Aboud Sammar

Emeritus Professor
Tikrit University / College of Arts

Email:
sabbood@uowasit.edu.iq

Keywords:

Al-Nuʿmān b. Al-Mundhir, tyranny, tribal system, pre-Islamic Arabian history

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 10.Sep.2025

Accepted 15.Oct.2025

Published 28.Nov.2025

Al-Nuʿmān ibn al-Mundhir (580–602 CE) Authoritarian Power in the Context of the Tribal State and Regional Balances

A B S T R A C T

Al-Nuʿmān ibn al-Mundhir is regarded as one of the most controversial figures in pre-Islamic Arab history, due to the complexity of his political position and the duality of his cultural and religious affiliations. He functioned as an intermediary king between the Sasanian Empire and the Arabs, while simultaneously preserving the features of Arab leadership. He also engaged in a multifaceted symbolic struggle with poets and with rival tribes.

The reign of al-Nuʿmān ibn al-Mundhir constituted a significant phase in the history of pre-Islamic Arab political authority. The Kingdom of al-Ḥīra was characterized by distinctive authoritarian features that combined loyalty to the Sasanians with the employment of ritual symbolism to consolidate power. This was clearly reflected in al-Nuʿmān's personal practices, which blended symbolic and physical violence and employed bloody political rituals to reinforce his prestige and authority.

What makes al-Nuʿmān a particularly rich subject for study is the close association of his power with violent rituals and forms of political spectacle that went beyond conventional violence to symbolic violence. This is evident in events such as the "Day of Misfortune" and the "Day of Bliss," as well as in the construction of the "al-Gharīyayn," among other acts that cannot be understood except through a complex psycho-social analysis.

The significance of this research lies in its illumination of a rare intersection between the political-historical context and the psychological structure of the authoritarian ruler's personality in pre-Islamic Arab culture. This approach enables a deeper understanding of the nature of authority in Arab society—not merely as direct governance, but as a symbolic system charged with religion, violence, and fluctuating loyalties.

© 2025 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol61.Iss3.5064

النُّعمان بن المُنذر(٥٨٠– ٦٠٢م)
السُلطةُ الاستِبداديّةُ في سِياقِ الدَّولةِ القَبَليّةِ والتَّوازُناتِ الإقليميّةِ

أ.د. سعد عبود سمار
أُستاذ متمرس ـ جامعة تكريت/ كلية الآداب

الملخص

يُعَدّ النُّعمان بن المُنذر من الشَّخصيّاتِ التي تُثيرُ الجدلَ في التّاريخِ العربيّ قبلَ الإسلامِ، نظرًا إلى تعقُّدِ موقعِه السّياسيّ وازدواجيّةِ انتمائِه الثّقافيّ والدّينيّ؛ فقد كان مَلِكًا وسيطًا بين السّاسانيّينَ والعربِ، لكنّه في الوقتِ ذاتهِ حافظَ على ملامحِ الزّعامةِ العربيّةِ، وخاضَ صراعًا رَمزيًّا مُتعدّدَ الأوجُه مع الشّعراءِ، وخُصومِه من القَبائلِ.

شَكَّلَ عهدُ النُّعمان بنِ المُنذِرِ مرحلةً مهمّةً في تاريخِ السُّلطةِ السّياسيّةِ العربيّةِ قبلَ الإسلامِ، إذ اتَّسمت مملكةُ الحيرةِ بسِماتٍ استبداديّةٍ مميَّزةٍ، جَمَعَت بين الولاءِ للسّاسانيّينَ وتوظيفِ الرَّمزيّةِ الطقسيّةِ لترسيخِ السُّلطةِ. وتجلَّى ذلك بوضوحٍ في مِمّارساتِ النُّعمان الشّخصيّةِ، التي مَزَجَت العُنفَ الرَّمزيَّ والفِعليَّ، ووَظَّفَت طُقوسًا سياسيّةً دمويّةً لتثبيتِ هَيْبَتِه وسُلطتِه.

ولعلّ ما يجعلُ من النُّعمان مادّةً غنيّةً للدّراسةِ، هو اقترانُ سُلطتِه بطُقوسٍ دمويّةٍ، وأشكالٍ من الاستِعراضِ السّياسيّ التي تجاوزت العُنفَ التّقليديَّ إلى العُنفِ الرَّمزيّ، كما تجلَّى ذلك في (يومِ البُؤسِ) و(يومِ النّعيمِ)، وفي بناءِ (الغَرِيَّينِ) وغيرِهما من الأفعالِ التي لا يمكنُ فَهمُها إلّا في ضوءِ تحليلٍ نَفسيّ– اجتماعيّ مُركَّبٍ.

تَكمُنُ أَهَمِّيَّةُ هذا البحث في أَنَّهُ يُضِيءُ نَقَاطُعًا نادِرًا بَيْنَ السِّياقِ التَّارِيخِيّ السِّياسِيّ، وَالبِنْيَةِ النَّفْسِيَّةِ لِشَخْصِيَّةِ الحَاكِمِ المُسْتَبِدِّ فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ. وهو ما يُتيح فَهمًا أعمقَ لطبيعةِ السُّلطةِ في المُجتمعِ العربيّ؛ لا بوَصفِها حُكمًا مُباشرًا فقط، بل بوَصفِها نَسقًا رَمزيًّا مُشحونًا بالدِّينِ والعُنفِ والوَلاءِ المُتذبذبِ.

الكلمات المفتاحية :

المقدِّمة

يُعَدّ النُّعمان بن المُنذر حلقةً انتقاليّةً في تاريخِ السُّلطةِ العربيّةِ، إذ كان آخرَ مُلوكِ المُناذرةِ الذينَ ارتبطوا عُضويًّا بالدّولةِ السّاسانيّةِ، وشكَّلت نِهايتُه المأساويّةُ لحظةَ تحوُّلٍ رَمزيّ سَبَقَت مُباشرةً انهيارَ نظامِ الرِّدافةِ العربيّ قُبَيلَ الفتحِ الإسلاميّ.

ومع هذه الأهمّيّةِ، تَبرُز إشكالاتٌ عدَّةٌ تُواجهُ الباحثَ، أبرزُها: تَضارُبُ الرّواياتِ بين المصادرِ العربيّةِ والإيرانيّةِ والمسيحيّةِ، والغُموضُ الذي يَلُفّ بعضَ الطُّقوسِ السُلطويّةِ المنسوبةِ إلى النُّعمان، فضلًا عن شُحِّ الدّراساتِ النّفسيّةِ التي تناولت شخصيّةَ الحاكمِ العربيّ قبلَ الإسلامِ، وكذلك صعوبةُ الفَصلِ بينَ التّاريخِ الواقعيّ والخِطابِ الأدبيّ– الأسطوريّ الذي أَحاطَ بهذهِ الشّخصيّةِ، لا سيَّما فيما وَرَدَ في نُصوصِ الشّعراءِ الذينَ قُتِلوا أو هُدِّدوا في عَهدِه.

ومن هذهِ التَّحدّياتِ تَنبُثِقُ الأسئلةُ المَركزيّةُ التي يُثيرُها هذا الفصلُ، ومنها: كيفَ مارَسَ النُّعمانُ سُلطتَهُ في ظِلِّ التّبعيّةِ للفُرسِ؟ وما الطُّقوسُ الرَّمزيّةُ التي مارَسَها لترسيخِ سُلطانِه؟ ما العلاقةُ بين (يومِ البُؤسِ) و(الغَرِيَّينِ) ومَنطِقِ العُنفِ الرَّمزيّ وتَرويضِ الرَّعيّةِ؟ كيف يُمكنُ فَهمُ تَحوُّلِه إلى المسيحيّةِ: أكانَ فِعلًا إيمانيًّا، أم تَعبيرًا عن أَزمةٍ سُلطويّةٍ؟ أينَ يَقِفُ

الشّعراءُ من هذا المَشهدِ السُّلطويّ؟ أَشَكَّلَ شِعرُهم مُقاومةً حقيقيّةً أم انخِراطًا رَمزيًّا في إنتاجِ السُّلطةِ؟ كيفَ انتَهى عَهدُ النُّعمان؟

هذا وتضمن البحث ثلاثة مباحث، كان عنوان المبحثُ الأوَّلُ: (بِنْيَةُ السُّلْطَةِ المركزيَّةِ وتَجَلّياتُ الهَيْمَنَةِ في شَخصيَّةِ النُّعمان)، وجاء في أربعة مطالب، هي: أوّلًا: شَخصيَّةُ النُّعمان المُسْتَبِدَّةُ، وثانيًا: استبدادُ النُّعمان في المعمارِ والسُّلطةِ الرَّمْزِيَّةِ (الغَرِيَّيْن)، وثالثًا: يَومُ البُؤسِ ويَومُ النَّعيمِ وتَمثيلُ الاستِبدادِ الطَّقوسيّ، ورابعاً: البِنْيَةُ العِقَابِيَّةُ في نِظَامِ النُّعمان وَتَجَلّيَاتُ الاسْتِبْدَادِ (سِجْنُ الثُّوَيَّةِ).

أما المبحث الثاني: فحمل عنوان (بِنْيَةُ السُّلْطَةِ المركزيَّةِ وتَجَلّياتُ الهَيْمَنَةِ في شَخصيَّةِ النُّعمان)، وتضمن المطالب التالية: أوّلًا: شَخصيَّةُ النُّعمان المُسْتَبِدَّةُ، وثانيًا: استبدادُ النُّعمان في المعمارِ والسُّلطةِ الرَّمْزِيَّةِ (الغَرِيَّيْن)، وثالثًا: يَومُ البُؤسِ ويَومُ النَّعيمِ وتَمثيلُ الاستِبدادِ الطَّقوسيّ، ورابعاً: البِنْيَةُ العِقَابِيَّةُ في نِظَامِ النُّعمان وَتَجَلّيَاتُ الاسْتِبْدَادِ (سِجْنُ الثُّوَيَّةِ).

ووسم المبحث الثالث، بعنوان (مَقْتَلُ عَدِيّ بنِ زَيْدٍ وتَداعِياتُهُ على العَلاقَةِ بَيْنَ النُّعمان وكِسْرَى)، وتضمن ثلاثة مطالب، هي: أولاً: مَقْتَلُ عَدِيّ بنِ زَيْدٍ، وثانياً: زِيدُ بن عَدِيّ وَالانْتِقَالُ مِنَ الوِسَاطَةِ إِلَى الثَّأْرِ السِّيَاسِيّ، وثالثاً: النَّعْمَان فِي مُوَاجَهَةِ المَصِيرِ مِنَ البَادِيَةِ إِلَى المَدَائِنِ. وجاء المَبْحَثُ الثَّاني المعنون (سِيَاسَاتُ النُّعمان بْنِ المُنذِر مَعَ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ بَيْنَ الاسْتِبْدَادِ وَالوَلَاءِ) بثلاثة مطالب، هي: أَوَّلًا: النُّعمان بن المُنذر وَالقَبَائِلُ العَرَبِيَّةُ إِدَارَةُ الصِّرَاعِ وَالوَلَاءِ عَلَى الهَامِشِ العَرَبِيّ لِلنُّفُوذِ السَّاسَانِيّ، وثانيًا: الرِّدافَةُ ويَوْمُ طِخْفَة الاسْتِبْدادُ الرَّمْزِيُّ والتَّعَدّي على الأعْرافِ القَبَلِيَّة، وثالثاً: يوم السُّلّان عنف الدّولة وفرض الطاعة الاقتصاديّة.

المبحثُ الأوَّلُ:

بِنْيَةُ السُّلْطَةِ المركزيَّةِ وتَجَلّياتُ الهَيْمَنَةِ في شَخصيَّةِ النُّعمان

أوّلًا: شَخصيَّةُ النُّعمان المُسْتَبِدَّةُ

تَوَلّى النُّعمان بن المُنذر، المُلقَّبُ بـ (أبي قابوس)، المُلُوكيَّةَ بعدَ والِدِه، وحَكَمَ الحِيرَةَ مُدَّةَ اثنتينِ وعِشرينَ سَنَةً، منها سَبْعُ سِنِينَ وثَمانيةُ أَشهُرٍ في عَهْدِ المَلِكِ السّاسانيّ هُرْمُزَ بنِ أَنُوشِروان، وأَرْبعَ عَشْرَةَ سَنَةً وأَرْبَعةُ أَشهُرٍ في عَهْدِ ابنه كِسْرَى أَبَرْوِيز (الطبري: ١٩٩٢: ٢: ٢١٣). يُعَدُّ النُّعمان مِن أبرَزِ مُلوكِ المَناذِرةِ الَّذينَ جَسَّدوا النَّموذَجَ المُرَكَّبَ للمَلِكِ الَّذي يَدورُ في فَلَكِ الدَّولةِ السّاسانيَّةِ، والمُتَسَلِّطِ اسْتِبْداديًّا في مُحيطِهِ العَربيّ المُستَقِلّ.

تُصَوِّرُ المَصادِرُ التَّاريخيَّةُ النُّعمانَ بنَ المُنذِر بوَصْفِه شَخصيَّةً مُسْتَبِدَّةً إنمازَتْ بالقَسْوَةِ والعُنْفِ؛ فقد وُصِفَ – كما نَقَلَ أبو البَقَاء– بأنَّه: "أحمَرُ أبرَشُ، قَصيرٌ، ذَميمٌ، قاسٍ، عاتٍ، سَفّاكٌ، باغٍ"(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ١٤٦– ١٤٧). ويُشيرُ هذا الوَصْفُ إلى عُقدَةِ نَقْصٍ عَميقةٍ دَفَعَتْهُ إلى القَسْوَةِ المُفْرِطةِ لتَأْكيدِ سُلطَتِه، وتُشيرُ إلى أَنَّه حَكَمَ مَمْلكَةَ الحِيرةِ بسُلطةٍ مَركزيَّةٍ مُطْلَقَةٍ، مِن دونِ وُجودِ مُؤَسَّساتٍ تَشارُكيَّةٍ أو آليّاتٍ للمُساءلةِ أو الشُّورى. إذْ وَصَفَ (الطَّبَريّ) مُوَضِّحًا: "أَنَّ مَلِكَ الحِيرَةِ كانَ يَفْرِضُ أمرَهُ على القَبائلِ مِن غيرِ اعتراضٍ" (الطبري: ١٩٨٧: ٣: ١٧٨). هذِه الإشارةُ تُجَسِّدُ واقِعًا اسْتِبْداديًّا يُتَمَثَّلُ في اسْتِئْثارِ الفَردِ بالسُّلطةِ، وغِيابِ أَيِّ تَوازُنٍ سياسيّ.

يَتَّخِذُ اسْتِبْدادُ النُّعمان أَشْكالًا مُتَناقِضَةً في مِمّارَساتِه اليوميَّةِ، مِن القَسْوَةِ والعُنفِ إلى الكَرَمِ والوَلاءِ. ويُمكنُ تَوصيفُ اسْتِبْدادِه بالاسْتِبْدادِ القَلِقِ؛ لأَنَّ زَعامَتَهُ كانتْ تَحتَ ظِلِّ الهَيْبَةِ الكِسْرَوِيَّةِ، فهو آخِرُ مُلوكِ آلِ لَخْمٍ قبلَ الإسلامِ.

تَمَيَّزَتْ شَخصيَّتُهُ السِّياسيَّةُ بقَدْرٍ عالٍ مِن الازدِواجيَّةِ السُّلوكيَّةِ، إذْ جَمَعَ بينَ رِعايةِ الشُّعراءِ والفُقَهاءِ، وبينَ مِمارَسَةِ القَتْلِ السِّياسيِّ والتَّهديدِ الرَّمْزِيِّ، وشُهْرَتُهُ فيما سُمِّيَ بـ "يَوْمَيْ النُّعمان: يَوْمِ النَّعِيمِ ويَوْمِ البُؤْسِ"، قَدَّمَتْ صُورَةً رَمْزِيَّةً عن زَعيمٍ تَحْكُمُه انْفِعالاتُه وتَقَلُّباتُه النَّفْسيَّةُ، أكْثَرَ مِن مَبادِئَ أو نِظامِ حُكْمٍ راسِخٍ.

هذا النَّمَطُ يَقودُنا إلى ما يُسَمَّى في عِلْمِ النَّفْسِ بـ «النَّرْجِسِيَّةِ الهَشَّةِ»، أَي ذلِكَ النَّوْعَ مِن الاسْتِبْدادِ الَّذي يَتَغَذَّى على الانْفِعالِ، ويَتَشَكَّلُ تَحتَ ضَغْطِ التَّبَعِيَّةِ لِسُلطةٍ أَقْوَى (كَكِسْرَى الفارِسيِّ)؛ مِمّا يُنْتِجُ ذاتًا قِياديَّةً تُعانِي مِن التَّرَدُّدِ، والقَلَقِ، والمُبالَغَةِ في فَرْضِ السُّلطةِ لِتَعويضِ هَشاشَتِها العَميقةِ. فَالنُّعمانُ لم يَكنْ حاكِمًا مُسْتَقِلًّا، بلْ كان تابِعًا سِياسيًّا لـ (كِسْرَى أَنُوشِروان) والسّاسانيّينَ. وهذهِ التَّبَعِيَّةُ وَلَّدَتْ لَدَيْهِ صِراعَ هُوِيَّةٍ بينَ كَوْنِهِ (مَلِكًا على العَرَبِ)، لكِنَّه ليسَ حُرَّ القَرارِ. وتَجَلَّى هذا الصِّراعُ تَجَلِّيًا نَفْسيًّا في سُلوكِه السُّلْطَوِيِّ المُتَناقِضِ: يَعْفُو عن مُجْرِمٍ بلا سَبَبٍ أَحْيانًا، ويَقْتُلُ زائرًا مِن دونِ جُرْمٍ أَحيانًا أُخْرى.

ومما لاشك فيه أَنَّ أَنْظِمَةَ الحُكْمِ القَبَلِيَّةِ فِي المِنْطَقَةِ كَانَتْ تَمِيلُ إِلَى بِنَاءِ سُلْطَةٍ فَرْدِيَّةٍ مُتَسَلِّطَةٍ عَبْرَ سَيْطَرَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَأَدَوَاتٍ قَسْرِيَّةٍ؛ مِمَّا يُلْغِي مَبْدَأَ المُشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ، يُمْكِنُ فَهْمُ حُكْمِ النُّعمان بِوَصْفِهِ أُنمُوذَجًا لِاسْتِبْدَادٍ مَرْكَزِيٍّ قَائِمٍ عَلَى قَمْعٍ أَيِّ مُعَارَضَةٍ مُحْتَمَلَةٍ.

كَذٰلِكَ تَدُلُّ المَصَادِرُ عَلَى غِيَابِ دَوْرِ المُؤَسَّسَاتِ القَبَلِيَّةِ أَوِ المَجَالِسِ الاسْتِشَارِيَّةِ فِي الحُكْمِ، وَهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَى طَبِيعَةٍ اسْتِبْدَادِيَّةٍ تَتَّسِمُ بِإِلْغَاءِ المُشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ. فِي (تَارِيخِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ) ، بُيِّنَ أَنَّ النُّعْمَانَ لَمْ يَكُنْ يَرْضَى أَنْ يُنَاقِشَ فِي أَمْرِهِ أَحَدٌ، أو يُشَاوِرَ أَحَدًا. وَإِنَّ هٰذَا الإِلْغَاءَ لِمَبْدَأ الشُّورَى يُعَزِّزُ فِكْرَةَ السُّلْطَةِ الفَرْدِيَّةِ المُطْلَقَةِ، الَّتِي تَسْتَبْعِدُ التَّعَدُّدِيَّةَ أَوِ النَّقْدَ، وَهُوَ مِنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِ الاسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيِّ فِي السِّيَاقِ القَبَلِيِّ.

هذا وتَعْمَلُ السُّلْطَةُ عَلَى ضَبْطِ الأَفْرَادِ نَفْسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا، عَبْرَ إِنْتَاجِ طُقُوسِ الطَّاعَةِ وَأُطُرِ الِالْتِزَامِ. إِذْ شَكَّلَ اسْتِغْلَالُ النُّعمان لِلْوَلَاءَاتِ القَبَلِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ، فَضْلًا عَنِ القِيَمِ التَّقْلِيدِيَّةِ، شَبَكَةَ عَلَاقَاتِ هَيْمَنَةٍ عَمِيقَةٍ، تُبْقِي الرَّعِيَّةَ فِي حَالَةِ خُضُوعٍ مُسْتَمِرٍ، وَتَضْبِطُ سُلُوكَهُمْ بِمَا يُعَزِّزُ بَقَاءَ السُّلْطَةِ. هٰذَا التَّدَاخُلُ بَيْنَ القُوَّةِ وَالقَهْرِ، وَالشَّرْعِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ هُوَ جَوْهَرُ الاسْتِبْدَادِ فِي هٰذِهِ البِيئَةِ.

جَسَّدَت شَخصِيَّةُ النُّعمان بنِ المُنذر أُنْمُوذَجًا مُتَكامِلًا لِلِاسْتِبْدادِ فِي المُجْتَمَعِ القَبَلِيِّ العَرَبِيِّ قَبْلَ الإِسْلَامِ، إِذْ جَمَعَ بَيْنَ اسْتِبْدَادٍ سِيَاسِيٍّ مَرْكَزِيٍّ مُطْلَقٍ، وَعُنْفٍ عَسْكَرِيٍّ قَاسٍ، مَعَ اسْتِغْلَالٍ ذَكِيٍّ لِلشَّرْعِيَّةِ الرَّمْزِيَّةِ عَبْرَ الدِّينِ وَالعَشِيرَةِ، فَضْلًا عَنْ غِيَابِ آلِيَّاتِ المُشَارَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ. هذَا النَّمُوذَجُ يُمَثِّلُ فَهْمًا عَمِيقًا لِطَبِيعَةِ السُّلْطَةِ فِي المُجْتَمَعَاتِ القَبَلِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيُسَاهِمُ فِي تَوْسِيعِ مَنْظُورِنَا عَنِ الاسْتِبْدَادِ فِي سِيَاقَاتِ تَارِيخِ مَا قَبْلَ الدَّوْلَةِ الحَدِيثَةِ.

وَقَدْ تَجَلَّى هٰذَا الاسْتِبْدَادُ فِي مِمَّارَسَاتِهِ اليَوْمِيَّةِ، لَا سِيَّمَا فِي تَعَامُلِهِ مَعَ القَبَائِلِ التَّابِعَةِ لَهُ، إِذْ مَارَسَ الإِذْلَالَ وَالبَطْشَ لِمَنْ يُخَالِفُهُ، كَذٰلِكَ اتَّصَفَ بِسُلُوكٍ شُمُولِيٍّ يُحَاوِلُ فَرْضَ الهَيْمَنَةِ بِالقُوَّةِ المَادِّيَّةِ وَالرَّمْزِيَّةِ.

ثانيًا: استبدادُ النُّعمان في المعمارِ والسُّلطةِ الرَّمْزِيَّةِ (الغَرِيَّيْن)

الغَرِيَّان: نُصْبانِ رَمْزِيَّانِ (طَرْبالانِ) يُغَرَّيَانِ دمَ مَن يُقْتَلُ، تَعبيرًا عن طَقْسٍ دَمَويٍّ يُكَرِّسُ فِكْرَةَ سَفْكِ الدَّمِ قُرْبَانًا لِلسُّلْطَة (الدينوري:٢٠٠٢: ١: ٢١٥). والغَرِيُّ في اللُّغَةِ ما يَبِسَ عليهِ الدَّمُ من صَنَمٍ وغَيْرِهِ(الهمداني: ١٩٩٦: ١: ٢١٥). والغَرِيَّان: مَوْضِعٌ بالكُوفَةِ نَحْوَ فَرْسَخَيْنِ (ستة أميال) عنها، وهو مُثَنَّى الغَرِيِّ بِفَتْحِ الغَيْنِ المُعْجَمَةِ، وكَسْرِ الرَّاءِ المُهْمَلَةِ، وتَشْدِيدِ الياءِ. ويُقَالُ إنَّ النُّعمانَ بَنَاهُمَا على قَبْرَيْ عَمْرو بن مَسْعُود، وخَالِد بن نَضْلَة، لَمّا قَتَلَهُمَا، وكانَا نَدِيمَيْهِ (البغدادي: ١٩٩٧: ١١: ٢٧٠).

اتَّسَمَ حُكْمُ النُّعمان بالاعتمادِ على رُموزٍ قاسِيَةٍ تُعَبِّرُ عن قَسْوَةِ السُّلْطَان، مِنْهَا اسْتِعْمَالُ (الغَرِيَّيْنِ) اللَّذَيْنِ كانَ يُلَطِّخُهُمَا بالدِّماءِ دَلالَةً على الهَيْمَنَةِ والبَطْش (أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ١٤٧). يُشِيرُ هذا الاسْتِعْمَالُ إلى بُعْدٍ رَمْزِيٍّ يَسْتَنِدُ إلى الدَّمِ والعُنْفِ لِتَعْزِيزِ السُّلْطَة، وهوَ نَوْعٌ مِنَ الاسْتِبْدَادِ المُتَمَثِّلِ في فَرْضِ الهَيْمَنَةِ عَبْرَ مَعْمَارٍ مَادِّيٍّ ورُموزٍ دَمَوِيَّةٍ، مَا يُمَثِّلُ نَظَرِيَّةَ (السُّلْطَةِ الاسْتِبْدَادِيَّةِ) الَّتِي تَلْتَفُّ حَوْلَ رَمْزِ القُوَّةِ والعُنْفِ بوَصْفِهِمَا وَسَائِلَ لِلحِفَاظِ على الحُكْم.

إلى جَانِبِ ذلك، تَرْتَبِطُ مِمَارَسَاتُ النُّعمان السُّلْطَوِيَّةُ بِرَمْزِيَّةِ المَعْمَارِ، لا سِيَّمَا في (الغَرِيَّيْنِ) اللَّذَيْنِ كانَ يُلَطِّخُهُمَا بالدِّمَاءِ عَلَامَةً على القُوَّةِ والقَسْوَةِ، وهو تَوْظِيفٌ لِلرُّمُوزِ المَادِّيَّةِ في تَعْزِيزِ صُورَةِ الحَاكِمِ المُسْتَبِدِّ الَّذِي يَفْرِضُ هَيْمَنَتَهُ عَبْرَ صُوَرِ العُنْفِ والدَّمَوِيَّةِ.

تَعَدَّدَتِ الأَقْوَالُ عن سَبَبِ بِنَاءِ الغَرِيَّيْنِ بَيْنَ الرِّوَايَةِ الأسْطُورِيَّةِ والتَّأْوِيلِ الطَّقُوسِيّ، فَهُنَاكَ مَنْ نَسَبَ بِنَاءَهُمَا إلى النُّعمان بنِ المُنذر، وهُنَاكَ مَنْ نَسَبَهُمَا إلى جُذَيْمَة الأَبْرَش، أو إلى الحَارِث الغَسَّانِيّ. وتَنَوَّعَتِ الرِّوَايَاتُ عَمَّنْ دُفِنَ فِيهِمَا: قَيْنَتَانِ مُغَنِّيَتَانِ، أو وَلَدَا الحَارِث، أو نَدِيمَانِ لِلنُّعْمَانِ(النويري: ١:٢٠٠٢: ٣٨٧).

وقد أضاف (النُّوَيْرِيّ) أنَّ المُنذر بَنَى الغَرِيَّيْنِ على جَارِيَتَيْنِ كانَتَا قَيْنَتَيْنِ تُغَنِّيَانِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَمَاتَتَا، فَدَفَنَهُمَا في مَوْضِعِهِمَا، وبَنَى عَلَيْهِمَا أُسْطُوانَتَيْنِ. وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى نُقِلَ أنَّ الحَارِثَ بنَ أَبِي شَمِرٍ انْتَقَمَ مِنَ المُنذِر، فَقَتَلَ وَلَدَيْهِ، وجَعَلَ جُثَّتَهُ (عَلَاوَةً) فَوْقَهُمَا على بَعِيرٍ، ثُمَّ دَفَنَهُم في الحِيرَةِ، وبَنَى عَلَيْهِمَا الغَرِيَّيْنِ(النويري: ١:٢٠٠٢: ٣٨٧).

ويُؤَكِّدُ (جَوَاد عَلِيّ) أنَّ هذا النَّوْعَ مِنَ القَصَصِ لا يَخْلُو مِنَ الصِّنَاعَةِ والتَّكَلُّفِ، وأنَّهُ لا يَحْمِلُ أيَّ قِيمَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَوْثُوقَةٍ، بَلْ يُشِيرُ إلى جَهْلِ المُؤَرِّخِينَ بِأَصْلِ البِنَاءِ، فَاتَّجَهُوا إلى القَصَصِ الشَّعْبِيّ لِمَلْءِ الفَرَاغِ (جواد علي: ٢٠٠١: ٢٣٧– ٢٣٨).

ويُبْدِي (جَوَادُ عَلِيّ) أَيْضًا رَأْيًا تَحْلِيلِيًّا مُهِمًّا، إذْ يَقْتَرِحُ أنَّ الغَرِيَّيْنِ كانَا في الأَصْلِ مَوْضِعَيْنِ مُرْتَبِطَيْنِ بِالعِبَادَةِ الوَثَنِيَّةِ، وأنَّهُمَا قد يَكُونَانِ نُصْبَيْنِ يُذْبَحُ عِنْدَهُمَا القَرَابِينُ، على شَاكِلَةِ ما وُجِدَ في مُجْتَمَعَاتٍ قَدِيمَةٍ أُخْرَى. ويَسْتَنِدُ في ذلك إلى دَلالَاتٍ لُغَوِيَّةٍ (كالطَّرْبالِ)، وأَخْبَارٍ وُرِدَتْ عن ذَبْحِ العَتَائِرِ عند الغَرِيّ، وإلى التَّشَابُه مع أَنْصَابٍ تُطْلَى بِدَمِ الذَّبَائِحِ(جواد علي: ٢٠٠١: ٢٣٨). وهذِهِ الرُّؤْيَةُ تَنْقُلُ الغَرِيَّيْنِ مِنْ حَيِّزِ القَصَصِ العَاطِفِيّ/ الأُسْطُورِيّ إلى الفَضَاءِ الطَّقُوسِيّ الرَّمْزِيّ، ما يُعِيدُ مَوْضِعَهُمَا داخِلَ نَسَقٍ دِينِيٍّ أَوْسَعَ، ويُبْعِدُ عَنْهُمَا الطَّابَعَ التَّرْفِيهِيَّ لِلْقَصَصِ الأَخْبَارِيّ.

ثالثًا: يَومُ البُؤسِ ويَومُ النَّعيمِ وتَمثيلُ الاستِبدادِ الطَّقوسيّ

وُرِدَت قِصَّةُ يَومِ البُؤسِ ويَومِ النَّعيمِ في عَدَدٍ مِنَ المَصادِرِ، مِنهَا ما أَورَدَهُ الثَّعالِبيُّ في ثِمارِ القُلوبِ، والمَيدانيُّ في مَجمَعِ الأَمثالِ. تَقولُ الرِّوايَةُ: إنَّ النُّعمان جَعَلَ لَهُ يَومَينِ: يَومَ نَعيمٍ يُكرِمُ فيهِ مَن يَلقاهُ، ويَومَ بُؤسٍ يَقتُلُ فيهِ مَن يُصادِفُهُ، حتّى أَوقعَ سُوءُ الطّالِعِ رَجُلًا يُدعَى (حَنظَلَة الطّائيّ) في يَومِ بُؤسِهِ، فَأَمهَلَهُ النُّعمانُ حتّى يَعودَ لِيَقضيَ دُيونَهُ، فَخَرَجَ حَنظَلَةُ، وضَمِنَهُ رَجُلٌ غَريبٌ، وعادَ حَنظَلَةُ في المَوعِدِ، فاستَغرَبَ النُّعمانُ وَفاءَهُ، فعَفا عَنهُ. وقَد أَصبَحَت هذِهِ القِصَّةُ لاحِقًا رَمزًا لِقَسوَةِ السُّلطةِ وتَقَلُّباتِها، وشَكَّلَت أَساسًا لِنَمَطٍ أَدبيٍّ شائِعٍ يُظهِرُ المَلِكَ مَصدَرًا مُطلَقًا لِلنِّعمَةِ أَوِ النِّقمَةِ (الثعالبي: ١٩٦٥: ٩٩).

وَوَرَدَ في بَعضِ الرِّواياتِ أَنَّ المُنذِر بنَ ماء السَّماءِ خَرَجَ في (يَومِ بُؤسِهِ)، وهوَ يَومٌ مَشؤومٌ في تَقاليدِ مُلوكِ الحِيرَةِ، إذ يُقتَلُ فيهِ مَن يُصادِفُهُمُ المَلِكُ. وقد صادَفَ في هذَا اليَومِ رَجُلًا مِن طَيِّئٍ يُدعَى (جابِر بنَ رَألان) ومَعَهُ صاحِبانِ، فأَمرَهُمُ المُنذِر بِالاقتِراعِ، فَخَرَجَتِ القُرعَةُ على جابِرٍ، فأُطلِقَ سَراحُهُ، وقُتِلَ صاحِباهُ، فَصاحَ جابِرٌ قائلًا: «عِزٌّ بَزٌّ»، أي: مَن غَلَبَ سَلَبَ، فَصارَت مثلاً(الزمخشري: ١٩٨٧: ٢: ٣٥٧).

وتُظهِرُ هذِهِ الرِّوايَةُ الطّابِعَ الشَّعائِرِيَّ لِيَومِ البُؤسِ، إذ يُمارِسُ المَلِكُ سُلطتَهُ المُطلَقَةَ بِشَكلٍ طَقوسيٍّ أَقرَبَ إلى القَرابينِ البَشَرِيَّةِ. ويَفترِضُ الباحِثُ جَوادُ عَلَيّ أنَّ هذَا اللَّونَ مِنَ القِصَصِ يَرتَبِطُ بِذِهنيَّةٍ خُرافيَّةٍ/ أُسطوريَّةٍ لا دَليلَ على واقِعيَّتِها، بل هيَ تَمثيلاتٌ سَرديَّةٌ لِسَطوَةِ المَلِكِ واستِبدادِهِ، وتَضَخُّمِ صُورتِهِ أَمامَ الرَّعيَّةِ(جواد علي: ٢٠٠١: ٢٣٧).

ويَتَّفِقُ مُعظَمُ الرُّواةِ على أنَّ النُّعمان بنَ المُنذِرِ ارتَكَبَ أَفعالًا لا تَليقُ بِالمُلكِ، أَبرَزُها اتِّخاذُهُ يَومَينِ مُتضادَّينِ: (يَومَ بُؤسٍ) فيهِ البَطشُ، و(يَومَ نَعيمٍ) فيهِ الكَرَمُ المُفرِطُ. وقد رَأى بَعضُ مُعاصِريهِ، ومِنهُمُ الحارِثُ بن عَمرٍو، أنَّ النُّعمانَ "أَخلَدَ إلى أَمرٍ مُستَقبَحٍ مُستَهجَنٍ عِندَ السَّوقَةِ، فَكَيفَ بِالمُلوكِ؟"، فَفِعلُهُ في جَعلِ دَمِهِ مُباحًا لِمَن يَقصِدُهُ في يَومِ بُؤسِهِ، وكَرَمِهِ لِمَن يَلقاهُ في يَومِ نَعيمِهِ، إنَّما هوَ فِعلُ "العَجماءِ" و"خَبطِ عَشوَاءَ"(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٦٥).

وقَد قَتَلَ عُبَيد بنَ الأَبرَص، الشّاعِرَ المَعروفَ، لِمُجرَّدِ أَنَّهُ وافاهُ في يَومِ بُؤسِهِ، على الرَّغمِ مِن كَونِهِ قاصِدًا إلَيهِ مادِحًا، فَقالَ لَهُ النُّعمانُ: "اخْتَرْ أَيَّ قِتلَةٍ شِئتَ"، فَطَلَبَ أن يُسقى الرّاحَ، ثُمَّ يُفصَدَ الأَكحَلُ، فَفَعَلَ، ودَمُهُ لَطَّخَ بِهِ الغَريَّينِ، وكانَ قد تَجاوَزَ الثَّلاثَ مِائَةِ سَنَةٍ (وفي هذَا الرَّقمِ مُبالَغَةٌ واضِحَةٌ)، ما يَزيدُ وَقعَ الفِعلِ بَشاعَةً. في المُقابِلِ، يَعفو النُّعمانُ عن شَيخٍ شَتَمَهُ وتَطاوَلَ عليهِ، ظَنًّا مِنهُ أَنَّهُ مَجهولٌ، ثُمَّ لَمّا عَرَفَهُ صَفَحَ عَنهُ؛ مِمّا يَكشِفُ عن تَناقُضٍ سُلوكيٍّ، عَبَّرَ عَنهُ طَرَفَةُ بن العبد في بَيتِهِ الشَّهيرِ:

أَبا مُنذِرٍ جُزيتَ بِالوُدِّ سَخْطَةً فَماذا جَزاءُ المُبغِضِ المُتبَغِّضِ؟ (أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٦٦).

إذًا، لَم تَكُن (أَيّامُ النَّعيمِ والبُؤسِ) مُجرَّدَ طُقوسٍ بِلا جُذورٍ سِياسيَّةٍ، بَل شَكَّلَت بُنيَةً سُلطويَّةً رَمْزِيَّةً مارَسَ بِها النُّعمانُ سُلطَةً استِثنائِيَّةً مُزدوَجَةً: سُلطَةَ التَّوزيعِ (في يَومِ النَّعيمِ)، وسُلطَةَ العِقابِ المُطلَقِ (في يَومِ البُؤسِ). يَقولُ ابن قُتيبَةَ الدينوري: إنَّ النُّعمانَ "جَعَلَ لَهُ يَومَينِ، لا يَلقى فيهِما أَحدًا إلّا أَكرَمَهُ أَو قَتَلَهُ" (الدينوري: ١٩٩٢: ٦٤٩)، ويُشيرُ هذَا النِّظامُ إلى تَقنينٍ لِلهَوى الفَرديِّ في صورَةٍ مِن صُوَرِ التَّسَلُّطِ القانُونيِّ، إذ أُسبِغَ على نَزَواتِ السُّلطانِ طابِعُ المَراسيمِ الثّابِتَةِ.

يُمثِّلُ النِّظامُ ثُنائيُّ اليومينِ سياسةً رَدعيّةً بقدرِ ما هو ستراتيجيّةٌ دِعائيّة. فقد أدرَكَ النُّعمان أنَّ الحُكمَ لا يَقومُ فقط بالقُوّةِ العَسكريّة، بل بتَطويعِ الخَيالِ السِّياسيِّ للجَماعة، وهو ما يَنسجمُ معَ مِمارَسةِ السَّيطرةِ عبرَ تَفصيلات الحياةِ اليوميّةِ والتَّصَوُّراتِ.

ولم يكنْ نظامُ يومَيِ العقابِ والمُكافأةِ مُجرَّدَ أداةٍ إداريّة، بل وسيلةً لِأسطَرةِ شَخصيّةِ الحاكم. فكما تُظهِرُ الرِّواياتُ، أصبحَ يومُ النَّعيمِ مُرادفًا للكَرَمِ المَلكيِّ الأسطوريِّ، ويومُ البُؤسِ رَمزًا للرُّعبِ المُقَدَّسِ. هذا التَّناقضُ الحادُّ أسهَمَ في رَسمِ صُورةٍ استثنائيّةٍ لـ (النُّعمان)، بوَصفِه القادِرَ على الحَياةِ والمَوتِ.

وتَتَجَلَّى رَمْزِيَّةُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لِسُلُوكِ النُّعمان فِي "يَوْمَيِ النَّعِيمِ وَالْبُؤْسِ"، عَلَى وَفْقِ الْجَدْوَلِ الآتِي:

السُّلُوك	التَّفْسِيرُ النَّفْسِيُّ
التَّقَلُّبُ بَيْنَ الْكَرَمِ وَالْعُنْفِ	مُؤَشِّرٌ عَلَى اضْطِرَابٍ فِي السَّيْطَرَةِ الانْفِعَالِيَّةِ.
رَبْطُ الْمَصِيرِ بِالْحَظِّ	إِسْقَاطٌ لِشُعُورِ الْعَجْزِ عَنِ الْقَرَارِ السِّيَاسِيِّ الْمُسْتَقِلِّ.
الإِذْلَالُ أَوِ الْعَطَاءُ الْمُطْلَقُ	مُحَاوَلَاتٌ لِتَعْوِيضِ انْعِدَامِ التَّوَازُنِ الدَّاخِلِيِّ فِي السُّلْطَةِ.

رابعاً: البِنْيَةُ العِقَابِيَّةُ في نِظَامِ النُّعمان وَتَجَلّيَاتُ الاسْتِبْدَادِ (سِجْنُ الثُّوَيَّةِ)

لا يُقَاسُ نُفوذُ الحَاكِمِ في النُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ التَّسَلُّطِيَّةِ فَقَطْ بِما يَمْلِكُهُ مِنْ أَدَوَاتِ القُوَّةِ، بَلْ بِما يُنْتِجُهُ مِنْ رُمُوزٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ تُكَرِّسُ سُلْطَتَهُ وَتُعِيدُ إِنْتَاجَهَا نَفْسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا. وَمِنْ بَيْنِ أَبْرَزِ هذِهِ المُؤَسَّسَاتِ الّتي تُمَثِّلُ طَبِيعَةَ السُّلْطَةِ المُتَمَرْكِزَةِ في شَخْصِ الحَاكِمِ، تَأْتِي المُؤَسَّسَةُ العِقَابِيَّةُ، لا بِوَصْفِهَا مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِلضَّبْطِ، بَلْ أَدَاةً لِصِنَاعَةِ الخَوْفِ وَتَثْبِيتِ الهَيْمَنَةِ. فِي هذَا السِّيَاقِ تَبْرُزُ دَلالَةُ سِجْنِ (الثُّوَيَّةِ) في عَهْدِ النُّعمان بْنِ المُنذِر، الّذي شَكَّلَ أُنموذجاً أَوَّلِيًّا لِلِاسْتِبْدَادِ العَرَبِيّ قَبْلَ الإِسْلَامِ.

ذَكَرَ (أَبُو البَقَاءِ الأَسَدِيُّ): إِنَّ النُّعْمانَ بْنَ المُنذِر كانَ صَاحِبَ سِجْنٍ يُدْعَى (الثُّوَيَّةُ) (أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ١٤٧)، وَقَدْ سُمِّيَ بِهذَا الاِسْمِ مِنَ الفِعْلِ (ثَوَى)، أَيْ أَقَامَ طَوِيلًا؛ لِأَنَّ مَنْ يُسْجَنُ فِيهِ كانَ يُقَالُ عَنْهُ إِنَّهُ (ثَوَى فِيهِ)، فَأَصْبَحَ الاِسْمُ مُرَادِفًا لِلسِّجْنِ ذَاتِهِ. هذِهِ التَّسْمِيَةُ تَحْمِلُ في جَوْهَرِهَا حُمُولَةً رَمْزِيَّةً مُكَثَّفَةً: فَالسِّجْنُ لا يُعْرَفُ بِوَظِيفَتِهِ فَحَسْبُ، بَلْ يُصَاغُ اسْمُهُ في ضَوْءِ النَّتِيجَةِ النَّفْسِيَّةِ–الاجْتِمَاعِيَّةِ لِمَنْ يُلْقَى فِيهِ، وَكَأَنَّ المَصِيرَ ذَاتَهُ يَتَجَسَّدُ في الاِسْمِ.

إِنَّ اسْتِعْمَالَ صِيغَةِ التَّصْغِيرِ (الثُّوَيَّةُ) لا يَنْفِي فَاعِلِيَّةَ المَعْنَى، بَلْ يُضْفِي عَلَيْهِ بُعْدًا تَقْلِيلِيًّا تَهَكُّمِيًّا يُخْفِي وَرَاءَهُ إِجْرَاءً سُلْطَوِيًّا مُطْلَقًا، بِمَا يُشْبِهُ مَفْهُومَ "السِّجْنِ الصَّغِيرِ" الّذي يَعْنِي "القَبْضَ الدَّائِمَ" بوصف السِّجْنِ أَدَاةً لِإِنْتَاجِ الطّاعَةِ.

لَمْ يَكُنْ سِجْنُ الثُّوَيَّةِ مُجَرَّدَ بِنَاءٍ مَادِّيٍّ يُحْبَسُ فِيهِ الخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ المَلِكِ، بَلْ كَانَ يُمَثِّلُ فِي الوَعْيِ العَرَبِيّ مَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِـ (مَقْبَرَةِ الأَحْيَاءِ). فَالفِعْلُ (ثَوَى) يَقْتَرِبُ فِي الدَّلَالَةِ مِنَ الإِقَامَةِ فِي القَبْرِ، وَلَيْسَ فَقَطْ فِي مَكَانِ الإِقَامَةِ، وَعَلَى وَفْقِ مَا ذَكَرَهُ ابن مَنْظُور: "وَثُوِيَ الرَّجُلُ: قُبِرَ، لِأَنَّ ذَلِكَ ثَوَاءٌ لا أَطْوَلَ مِنْهُ (ابن منظور: ١٤١٤هـ: ١٤: ١٢٦). وَعَلَيْهِ، فَقَدْ مَارَسَ النُّعْمَانُ فِي الثُّوَيَّةِ نَوْعًا مِنَ العِقَابِ الرَّمْزِيّ المُتَعَدِّي لِلْجَسَدِ، إِذْ يَتَحَوَّلُ الحَبْسُ إِلَى عَمَلِيَّةِ قَتْلٍ رَمْزِيّ وَاجْتِمَاعِيّ، يَسْتَهْدِفُ العِبْرَةَ أَكْثَرَ مِنَ العُقُوبَةِ.

وَيُعَدُّ الثُّوَيَّةُ مُؤَشِّرًا عَلَى انْتِقَالِ المُجْتَمَعِ نَحْوَ سُلْطَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ قَسْرِيَّةٍ، إِذْ تُمَثِّلُ فِي نِظَامِ النُّعمان تَطَوُّرًا مَلْحُوظًا فِي طَبِيعَةِ السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ لَدَى العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ؛ فَقَدِ انْتَقَلَتِ السُّلْطَةُ مِنَ الفَضَاءِ القَبَلِيّ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ العُقُوبَةُ عَلَى الرِّضَا العَامّ، إِلَى نِظَامٍ سُلْطَوِيّ مَرْكَزِيّ يُدِيرُ العِقَابَ بِوَصْفِهِ امْتِيَازًا سُلْطَانِيًّا لا يُخْضَعُ لِلْمُحَاسَبَةِ. وَبِهَذَا المَعْنَى، فَإِنَّ سِجْنَ الثُّوَيَّةِ يُعَدُّ تَجَلِّيًا لِمَا يُسَمِّيهِ مُحَمَّد عَابِد الجَابِرِيُّ بِـ (العَقْلِ السِّيَاسِيّ المَوْرُوثِ)، الَّذِي يُعِيدُ إِنْتَاجَ الاسْتِبْدَادِ عَبْرَ أَدَوَاتِ الطَّاعَةِ وَالإِخْضَاعِ (الجابري: ١٩٩٠: ١٠٢– ١٠٦).

وَصَفْوَةُ القَوْلِ فِي سِجْنِ الثُّوَيَّةِ إِبَّانَ عَهْدِ النُّعمان بْنِ المُنذر: إِنَّهُ يُمَثِّلُ أَحَدَ أَبْرَزِ تَجَلِّيَاتِ الاسْتِبْدَادِ السُّلْطَوِيّ فِي مَرْحَلَةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ؛ إِذِ امْتَزَجَ العِقَابُ بِالرَّمْزِ، وَالسِّجْنُ بِالتَّهْدِيدِ، وَالمُؤَسَّسَةُ بِالذَّاتِ المَلَكِيَّةِ. فَقَدْ نَجَحَ النُّعْمَانُ فِي تَوْظِيفِ اللُّغَةِ وَالعُقُوبَةِ وَالمَكَانِ لِصِنَاعَةِ سُلْطَةٍ لا تَقُومُ فَقَطْ عَلَى القَهْرِ، بَلْ عَلَى إِنْتَاجِ الطَّاعَةِ وَالخَوْفِ فِي آنٍ وَاحِدٍ. إِذ إِنَّ قِرَاءَةَ سِجْنِ الثُّوَيَّةِ تَكْشِفُ عَنْ بِنْيَةٍ سِيَاسِيَّةٍ كَانَتْ تَنْحُو نَحْوَ مَرْكَزَةِ الدَّوْلَةِ حَوْلَ إِرَادَةِ الحَاكِمِ الفَرْدِ، بِوَصْفِهِ مَصْدَرَ العُقُوبَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالقَدَرِ الجَمَاعِيّ.

المَبْحَثُ الثَّاني:

سِيَاسَاتُ النُّعمان بْنِ المُنذِر مَعَ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ بَيْنَ الاسْتِبْدَادِ وَالوَلَاءِ

بَرَزَتْ سَاحَةُ الصِّرَاعِ العَرَبِيّ–العَرَبِيّ فِي مُنْتَصَفِ القَرْنِ السَّادِسِ المِيلَادِيّ تَحْتَ رِعَايَةِ الدَّوْلَتَيْنِ البِيزَنْطِيَّةِ وَالفَارِسِيَّةِ، إِذْ كَانَتْ مَمْلَكَةُ الحِيرَةِ تُمَثِّلُ الذِّرَاعَ العَرَبِيَّ لِلدَّوْلَةِ السَّاسَانِيَّةِ، بَيْنَمَا كَانَتْ مَمْلَكَةُ الغَسَاسِنَةِ حَلِيفًا اسْتِرَاتِيجِيًّا لِلرُّومِ البِيزَنْطِيِّينَ. فِي هَذَا السِّيَاقِ، نَشَبَ صِرَاعٌ بَيْنَ المُنذِر بْنِ مَاءِ السَّمَاء مَلِكِ الحِيرَةِ وَالحَارِث الغَسَّانِيّ (المَعْرُوفِ بِالحَارِثِ الخَامِسِ)، أَدَّى إِلَى

وَاحِدَةٍ مِنْ أَبْرَزِ المَعَارِكِ الوَكِيلَةِ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَهِيَ مَعْرَكَةُ حَلِيمَةَ (نَحْوَ ٥٥٤م)، قَادَ المُنذر المَعْرَكَةَ نِيَابَةً عَنِ الفُرْسِ ضِدَّ الحَارِثِ الغَسَّانِيّ، لَكِنَّهُ قُتِلَ؛ مِمَّا أَحْدَثَ اضْطِرَابًا سِيَاسِيًّا فِي الحِيرَةِ، وَفَتَحَ المَجَالَ لِوِرَاثَةِ السُّلْطَةِ مِنْ قِبَلِ ابْنِهِ النُّعمان(الطبري: ١٩٨٧: ١: ٦٤٩). فَمَعْرَكَةُ حَلِيمَةَ لَمْ يَخُضْهَا النُّعْمَانُ بِنَفْسِهِ، بَلْ قَادَهَا المُنذر بن مَاءِ السَّمَاءِ (وَالِدُ النُّعمان)، إِلَّا أَنَّ النُّعْمَانَ كَانَ مُعَاصِرًا لَهَا وَرُبَّمَا شَارَكَ فِيهَا كَوْنُهُ أَمِيرًا.

أَوَّلًا: النُّعمان بن المُنذر وَالقَبَائِلُ العَرَبِيَّةُ إِدَارَةُ الصِّرَاعِ وَالوَلَاءِ عَلَى الهَامِشِ العَرَبِيّ لِلنُّفُوذِ السَّاسَانِيّ

تَقَعُ الحِيرَةُ عَلَى خَطِّ تَمَاسٍّ بَيْنَ النُّفُوذِ الفَارِسِيّ السَّاسَانِيّ وَالقَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ، وَهَذَا الوَضْعُ شَكَّلَ تَحَدِّيًا مُعَقَّدًا لِلنُّعْمَانِ بْنِ المُنذِر فِي سَعْيِهِ لِلحِفَاظِ عَلَى حُكْمِهِ. كَانَ عَلَيْهِ المُوَازَنَةُ بَيْنَ إِرْضَاءِ كِسْرَى مِنْ جِهَةٍ، وَالحِفَاظِ عَلَى شَرْعِيَّتِهِ وَوَلَاءِ القَبَائِلِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذْ أَدَّتِ القَبَائِلُ دَوْرًا مَحْوَرِيًّا فِي اسْتِقْرَارِ حُكْمِهِ أَوْ زَعْزَعَةِ عَرْشِهِ(الطبري: ١٩٨٧: ٣: ٢٧٠؛ ابن الأثير: ١٩٩٧: ٣: ٢٧٠).

كَانَ النُّعْمَانُ يَشُنُّ غَارَاتٍ مُسْتَمِرَّةً عَلَى القَبَائِلِ المُتَمَرِّدَةِ أَوْ غَيْرِ الخَاضِعَةِ، ضِمْنَ سِيَاسَةِ إِخْضَاعِ البَدْوِ لِصَالِحِ السُّلْطَةِ السَّاسَانِيَّةِ. هَذِهِ الحَمَلَاتُ لَمْ تُسَجَّلْ بِوَصْفِهَا (مَعَارِكَ كُبْرَى) فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ طَابِعٍ قَمْعِيٍّ، وَتَحْمِلُ دَلَالَةً اسْتِبْدَادِيَّةً.

اتَّخَذَ النُّعمانُ سياسةَ تَفْضيلٍ مَرْحَليٍّ مع بَني تَغْلِب، ولا سِيَّما عَبْرَ العَلاقاتِ الأدَبيّةِ والدِّينيّة، فقدْ كانتْ أُسْرَةُ بَني تَغْلِب مِن أوْثَقِ القَبائِلِ صِلَةً بالحِيرَة، وبَرَزَ مِن بَيْنِهِم شُعَراءُ، مثلُ: عَمْرو بن كُلْثوم، وكانتْ تَغْلِبُ تَتَلَقّى امْتِيازاتٍ رَمْزِيَّةً ومادِّيّةً مِن مُلوكِ الحِيرَةِ في بَعْضِ العُهود، وهو ما يُفْهَمُ في سِياقِ مُوازَنَةِ نُفوذِ قَبائِلَ أُخْرَى مثلَ رَبيعَةَ أو بَني شَيْبان (الزَّوْزَني: ٢٠٠٢: ٢١٣ وما بعدها).

أمّا عنْ عَلاقَتِه بِبَني شَيْبان (مِن بَكرِ بن وائل)، فَعَلى الرَّغْمِ مِن أنَّ العَلاقَةَ مَعَ بَني شَيْبانَ انْتَهَتْ بِصِراعٍ دَمَوِيٍّ في أواخِرِ عَهْدِ النُّعمان بنِ المُنذِر – آخِرِ مُلوكِ الحِيرَةِ قَبْلَ الإسلام – إذْ قُتِلَ في ظُروفٍ غامِضَةٍ بَعْدَ تَوَتُّرِ عَلاقَتِه بالفُرْس، فإنَّ المَناذِرَةَ حاوَلوا في مُدَّةٍ سابِقَةٍ اسْتِخْدامَ بَعْضِ بُطونِ بَكرٍ لِضَرْبِ بُطونٍ أُخْرَى مِن القَبائِل. فقدْ كانتْ سياسةُ مُلوكِ الحِيرَةِ عامّةً – والنُّعمان خاصّة – تَقُومُ على احْتِواءِ بَني شَيْبانَ كَوْنَهُم قُوَّةً مُقاتِلَة، ثُمَّ التَّخَلُّصِ مِنْهُم مَتى شَعَروا بِخَطَرِهِم(الطبري: ١٩٨٧: ٣: ٤١٩).

أمّا عنْ عَلاقَتِه بِبَني تَميم، فهذِهِ القَبيلَةُ تُمَثِّلُ أُنموذجاً لِلقَبيلَةِ الّتي رَفَضَتِ الخُضُوعَ الكامِل، وكانَ النُّعمانُ يَسْتَخْدِمُ أحيانًا بُطونًا أُخْرَى لِمُواجَهَتِها، لا سِيَّما في أوقاتِ التَّمَرُّد. وَفْقًا لِما أشارَتْ إِلَيْهِ المَصادِرُ، فإنَّ المَناذِرَةَ كانوا يُقَدِّمونَ عَطايا وهِباتٍ لِبَني دارِمٍ مِن تَميم، لِتَمييزِهِم عَن بَقِيَّةِ البُطون، في مُحاوَلَةٍ لِتَجْزِئَةِ التَّماسُكِ الدّاخِلِيّ لِلقَبيلَة (ابن الأثير: ١٩٩٧: ٣: ٢٩٨).

ثانيًا: الرِّدافَةُ ويَوْمُ طِخْفَة الاسْتِبدادُ الرَّمْزِيُّ والتَّعَدّي على الأعْرافِ القَبَلِيَّة

تُمَثِّلُ الرِّدافَةُ سُلْطَةَ الظِّلِّ في البِلاطِ المُنذِرِيّ، وقدْ مَثَّلَتْ مَنْصِبًا رَمْزِيًّا–وَظيفِيًّا ذا طابَعٍ مُزْدَوِجٍ، يَتَداخَلُ فيهِ السِّياسيُّ مَعَ الدِّينيّ، والشَّرَفِيُّ مَعَ التَّنفيذيّ. وفي بلاطِ النُّعمان بنِ المُنذر تَحْديدًا، اتَّخَذَتِ الرِّدافَةُ طابَعًا سُلْطَوِيًّا خاصًّا، إذْ تَحَوَّلَتْ إلى أداةٍ لِشَرْعَنَةِ الهَيْمَنَة، وإلى مِرْقاةٍ لِلصِّراعِ الطَّبَقِيّ والقَبَلِيّ، وإلى مِرآةٍ تُظْهِرُ تَصَدُّعَ السُّلْطَةِ المَرْكَزِيَّةِ ومُحاوَلَتِها الدّائِمَةَ تَرميمَ صُورَتِها الرَّمْزِيَّة.

تُعَدُّ الرِّدافَةُ مَنْصِبًا ذا طابَعٍ سِياسِيٍّ–تَشْرِيفِيّ، يُطْلَقُ على فِعْلِ الرَّدْفِ لِلمَلِك، أي الجُلُوسِ خَلْفَهُ أو إلى جِوارِهِ، وهي مَنْزِلَةٌ تُقارِبُ في رَمْزِيَّتِها مَقامَ الخِلافَة. وقدْ وَرَدَ في مَعاجِمِ اللُّغةِ والأخْبارِ أنَّ الرِّدافَةَ كانتْ مَعْرُوفَةً عندَ العَرَبِ في الجاهِلِيَّة، وتَمتَّعَتْ بِأبْعادٍ قَبَلِيَّةٍ وسِياسِيَّةٍ واضِحَة. فقد أورد الزَّبيديُّ تعريفاً للردافة، بأنها "فِعْلُ رِدْفِ الْمَلِكِ، كَالْخِلَافَة، وكانَتْ فِي الجاهليَّة لِبَنِى يَرْبُوعٍ :لأَنَّه لم يكُنْ فِي العربِ أَحَدٌ أَكْثَرَ غَارة علَى مُلُوكِ الحِيرَةِ مِنْ بَنِي يَرْبُوعٍ، فصَالَحُوهم علَى أَن جَعَلُوا لَهُم الرِّدَافَةَ، وَيَكُفُّوا عَن أَهْلِ العِراقِ الغَارَةَ، وَقَالَ المبَرِّد :للرِّدافةِ مَوْضِعانِ: أَحَدُهما: أَنْ يُرْدِفَه الملُوكُ دَوَابَّهم فِي صَيْدٍ والآخَر، أَن يَخْلُفَ المَلِكَ إِذا قامَ عَن مَجْلِسِهِ، فَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الناسِ، قَالَ: كَانَ المَلِكُ يُرْدِفُ خَلْفَهُ رجلا شَرِيفاً، وَكَانُوا يَرْكَبُونَ ٱلإِبِلَ، وأَرْدَافُ المُلُوكِ: هم الَّذين يَخْلُفُونَهم فِي القِيَامِ بأَمْرِ المَمْلَكةِ، بمَنْزِلَةِ الوُزَرَاءِ فِي الإِسْلامِ، واحدُهم رِدْفٌ، والاسْمُ الرِّدافَةُ، كالوِزَارةِ"(الزبيدي: ٢٠٠١: ٢٣: ٣٣١).

وبذلك، فالرِّدافةُ لم تكنْ مجرَّدَ موقعٍ خَلْفيٍّ بالمعنى المَكانيّ، بلْ كانتْ مَنْصِبًا تَمثيليًّا وتَنفيذيًّا، يكونُ فيه الشَّخصُ مَقامَ المَلِكِ، ويقومُ الوزيرُ مَقامَ الخليفةِ أو السُّلطانِ في الدَّولةِ الإسلاميَّةِ. وقد أُطلِقَ على هؤلاءِ (أرْدافُ الملوكِ)؛ لأنَّهم يَخْلُفُونَهم في شُؤونِ الحُكْمِ، ويُقالُ لأحدِهم (رِدْفٌ)، وللمنصبِ (رِدافةٌ)، تمامًا كما يُقالُ: وزيرٌ ووزارةٌ. وقد ظَهَرَ هذا المَنْصِبُ في مُنتصفِ القَرْنِ السّادسِ المِيلاديّ؛ وذلك للضَّعفِ الذي انتابَ ملوكَ الحِيرةِ آنذاك، لذا أرادُوا كَسْبَ وُدِّ القَبائلِ القَوِيّةِ لهم، فمَنَحُوهُمْ هذا المَنْصِبَ، ولا سيَّما بَني دارِم من تَميم (درادكة: ١١: ١٩٨٣: ٢٤– ٢٥).

وبعدَ مَعركةِ طِخْفَةَ، ومُحاولةِ نَقْلِ الرِّدافةِ من بَني يَربوعَ إلى بَني دارِم، كَشَفَتْ هذهِ الحادِثةُ كيفَ تَحوَّلَتِ الرِّدافةُ من مَنْصِبٍ وَظيفيٍّ إلى رَمْزٍ شَرَفيٍّ، ومِنْ تَمثيلٍ إداريٍّ إلى أداةِ استبدادٍ رَمْزيّ. فمِنْ مَنظورٍ سوسيولوجيّ، فإنَّ "الرأسمالَ الرَّمْزيَّ" يُشَكِّلُ جُزْءًا أَساسيًّا مِنْ بِنْيةِ السُّلطةِ؛ والرِّدافةُ، بوَصْفِها مَوقِعًا مَرْموقًا داخلَ البِلاطِ، تُمثِّلُ هذا الرأسمالَ الرَّمْزيَّ الذي يَسْتثمرُهُ الملكُ في ضَبْطِ الوَلاءاتِ، وتَوزيعِ النِّعمةِ، وإذْلالِ الخُصومِ عن طَريقِ الحِرمانِ منها أوْ مَنْحِ خُصومِهم إيَّاها.

إذاً، ليستِ الرِّدافةُ مَنْصِبًا إداريًّا فَحَسْبُ، بلْ بِنْيَةٌ رَمْزيَّةٌ سُلطويَّةٌ تَكْشِفُ البُعْدَ النَّفسيَّ–الأنثروبولوجيَّ للزَّعامةِ في المُجتَمَعِ العَرَبيّ قَبْلَ الإسلامِ. إنَّها تَجْسيدٌ لِلاستبدادِ النّاعِمِ الذي يُوظِّفُ الشَّرَفَ والمَقامَ والرَّمْزَ لِتثبيتِ الهيمنةِ، وتَحويلِ البِلاطِ إلى مَسْرحٍ تَتوزَّعُ فيهِ الكَرامةُ كَجوائزَ سياسيّةٍ مَشْروطةٍ بالوَلاءِ، لا بالاستحقاقِ.

وارتبط يوم طخفة بـ (الردافة)، بدلالة ما ذكره أَبُو عُبَيْدَة: وَكَانَ سَبَبَ هَذِهِ الْحَرْبِ أَنَّ الرِّدَافَةَ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْوَزَارَةِ، وَكَانَ الرَّدِيفُ يَجْلِسُ عَنْ يَمِينِ الْمَلِكِ، كَانَتْ لِبَنِي يَرْبُوعٍ مِنْ تَمِيمٍ يَتَوَارَثُونَهَا صَغِيرًا عَنْ كَبِيرٍ. فَلَمَّا كَانَ أَيَّامُ النُّعْمَانِ، وَقِيلَ أَيَّامُ ابْنِهِ الْمُنذر، سَأَلَهَا حَاجِبُ بن زُرَارَةَ الدَّارِمِيُّ التَّمِيمِيُّ النُّعْمَانَ أَنْ يَجْعَلَهَا لِلْحَارِثِ بْنِ بَيْبَةَ بْنِ قُرْطِ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ مُجَاشِعٍ الدَّارِمِيِّ التَّمِيمِيِّ، فَقَالَ النُّعْمَانُ لِبَنِي يَرْبُوعٍ فِي هَذَا، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُجِيبُوا إِلَى ذَلِكَ، فَامْتَنَعُوا، وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ أَسْفَلَ طِخْفَةَ، فَحَيْثُ امْتَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ بَعَثَ إِلَيْهِمُ النُّعْمَانُ قَابُوسَ ابْنَهُ وَحَسَّانًا أَخَاهُ ابْنَيِ المُنذر، قَابُوسُ عَلَى النَّاسِ، وَحَسَّانُ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ، وَضَمَّ إِلَيْهِمَا جَيْشًا كَثِيفًا، مِنْهُمُ الصَّنَائِعُ وَالْوَضَائِعُ وَنَاسٌ مِنْ تَمِيمٍ وَغَيْرِهِمْ، فَسَارُوا حتّى أَتَوْا طِخْفَةَ فَالْتَقَوْا هُمْ وَيَرْبُوعٌ وَاقْتَتَلُوا، وَصَبَرَتْ يَرْبُوعٌ وَانْهَزَمَ قَابُوسٌ وَمَنْ مَعَهُ(ابن الأثير: ١: ٥٧٨). وبذلك فشل النعمان في نقل الردافة من بني يربوع.

مثَّلَ يومُ طِخْفَةَ تَجَلّيًا واضِحًا لسياساتِ الاسْتِبْدادِ السِّياسيّ التي اتَّبَعَهَا النُّعْمانُ بن المِنذِرِ في إدارَةِ سُلطانِه، إذ تتَداخَلُ فيها عَناصِرُ القَهْرِ الرَّمْزِيّ والمؤسَّسِيّ ضدَّ قَبائلِ تَميم، لا سيَّما بَني يَربوع. فالرِّدافةُ، بوَصْفِها مَنْصِبًا رَمْزِيًّا يُعادِلُ الوزارةَ أو النيابةَ عن المَلِكِ، كانَتْ لآلِ يَربوعَ على سَبيلِ العُرفِ القَبَليّ الموروثِ، وهو ما أكسَبَهُم سُلطةً رَمْزِيَّةً ضِمْنَ هيكَلِ السُّلطةِ اللخميَّةِ. غيرَ أَنَّ النُّعْمانَ، في مُحاوَلةٍ مِنْه لإعادةِ تشكيلِ مَراكِزِ النُّفوذِ داخِلَ بِلادِه، طَلَبَ التنازُلَ عن هذا المَنْصِبِ لصالحِ حليفٍ جديدٍ من دارِم، فَلَمَّا رَفَضَ بَني يَربوعَ، استُعْمِلَ العُنفُ العَسْكريُّ لإخضاعِهم، لا على أَساسِ تَمَرُّدٍ سِياسيٍّ أو

عَسْكريّ، وإنَّما بِسَبَبِ رَفْضِهِم الخُروجَ عن الأعرافِ القَبَليَّةِ التي تَحْفَظُ لهم مكانةً تاريخيَّةً ضِمْنَ البِلاطِ العَرَبيّ–الفارسيّ في الحِيرةِ (ابن الأثير: ١: ٥٧٨).

إنَّ هذا التَّصَرُّفَ يُظْهِرُ عَقْلِيَّةَ الاسْتِبْدادِ المُؤَسَّسَةِ، إذ يُجَرَّدُ الحُكْمُ مِنْ أيّ اعْتِبارٍ لأعرافٍ قبَليَّةٍ، ويُصبِحُ المَرْكَزُ (المَلِكُ) هُوَ مَصْدَرَ الشَّرْعِيَّةِ الحَصْرِيَّةِ. وبِهذَا، يَسْتَعمِلُ النُّعْمانُ القُوَّةَ العَسْكريَّةَ لإعادةِ (تَوْزِيعِ المَنَاصِبِ) بما يَخدِمُ وَلاءَهُ، ضارِبًا بِالتُّراثِ القَبَليّ عَرْضَ الحائِطِ.

وعلى الرَّغْمِ من أنَّ بَني يَربوعَ انتَصَرُوا في المعْرَكةِ، فإنَّ النُّعْمانَ، حين عَلِمَ بنَجاةِ ابْنِهِ وأخِيهِ، سارَعَ إلى استِرْضاءِ بَني يَربوعَ بإرْجاعِ الرِّدافةِ إليهم، ومنحَهم غَنائِمَهم، بل وزادَ على ذلك بأَلْفَيْ بَعيرٍ، في مُحاوَلةٍ لاستِعادَةِ الهَيْبَةِ المَلَكيَّةِ عَبرَ الكَرَمِ لا عَبْرَ الاعتذارِ. إنَّ هذا السُّلوكَ يُجسِّدُ مُفارَقَةَ المُسْتَبِدِّ، باستِعمالِ القُوَّةِ لِكَسْرِ الأعرافِ، ثُمَّ يلجأُ إلى التَّرمِيمِ الرَّمْزِيّ لِاجتِراحِ الشَّرعيَّةِ مِن جَديدٍ.

كَذلِكَ يُعَبِّرُ هذا الإجراءُ عن صورةٍ من صُوَرِ الاسْتِبْدادِ السِّياسيّ الذي يَسْتَهْدِفُ تَفكيكَ البِنْيَةِ التَّقْليديَّةِ لِلشَّرعيَّةِ، وإعادةِ بنائِها على وفقِ مَنْطِقِ الوَلاءِ الشَّخْصِيّ، لا الانْتِماءِ التّاريخيّ. فإرسالُ النُّعمان جَيْشًا جَرَّارًا بقيادةِ وَلَدِهِ قابوسَ وأخيهِ حَسّانَ لمجردِ الخِلافِ على الرِّدافةِ، يَدُلُّ على مَدى تضخُّمِ الذّاتِ السُّلْطانيَّةِ وتَضاؤُلِ الوَسائِطِ التَّفاوضيَّةِ في الحُكْمِ. والأَهَمُّ مِن ذلك أنَّ قابوسَ بنَ النُّعمان، بعدَ أَسْرِهِ، رَفَضَ أن تُجَزَّ ناصِيَتُهُ قائِلًا: "إنَّ المُلُوكَ لا تُجَزُّ نَواصَيهَا"، ما يَشِي بِذِهْنيَّةِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ التي تَرَى نَفْسَها فَوْقَ أعرافِ المَهْزُومينَ، حَتّى في حالِ وُقوعِها الأسر (ابن الأثير: ١: ٥٧٨).

ثالثاً: يوم السُّلّان عنف الدّولة وفرض الطاعة الاقتصاديّة

روى أبو عبيدة قصة يوم السُّلّان (ابن الأثير: ١: ٥٧٠– ٥٧١)، التي دارت رحاها بين جيش النعمان بن المنذر وبنو عامر بن صعصعة، الذين كانوا لَقَاحًا لَا يَدِينُونَ لِلْمُلُوكِ. فَلَمَّا مَلَكَ النُّعْمَانُ بن المُنذِر مَلَّكَهُ كِسْرَى أَبْرَوِيزُ، وَكَانَ يُجَهِّزُ كُلَّ عَامٍ لَطِيمَةً، وَهِيَ التِّجَارَةُ، لِتُبَاعَ بِسوق عُكَاظَ، فَعَرَضَتْ بنو عَامِرٍ لِبَعْضِ مَا جَهَّزَهُ فَأَخَذُوهُ. فَغَضِبَ لِذَلِكَ النُّعْمَانُ وَبَعَثَ إِلَى أَخِيهِ لِأُمِّهِ، وَهُوَ وَبْرَةُ بن رُومَانِسَ الْكَلْبِيُّ، وَبَعَثَ إِلَى صَنَائِعِهِ وَوَضَائِعِهِ، وَالصَّنَائِعُ مَنْ كَانَ يَصْطَنِعُهُ مِنَ الْعَرَبِ لِيُغْزِيَهُ، وَالْوَضَائِعُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا شِبْهَ الْمَشَايِخِ، وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي ضَبَّةَ بْنِ أُدٍّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرِّبَابِ وَتَمِيمٍ فَجَمَعَهُمْ، فَأَجَابُوهُ، فَأَتَاهُ ضِرَارُ بن عَمْرٍو الضَّبِّيُّ فِي تِسْعَةٍ مِنْ بَنِيهِ كُلُّهُمْ فَوَارِسُ وَمَعَهُ حُبَيْشُ بن دُلَفٍ، وَكَانَ فَارِسًا شُجَاعًا، فَاجْتَمَعُوا فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ، فَجَهَّزَ النُّعْمَانُ مَعَهُمْ عِيرًا وَأَمَرَهُمْ بِتَسْيِيرِهَا وَقَالَ لَهُمْ :إِذَا فرَغْتُمْ مِنْ عُكَاظَ وَانْسَلَخَتِ الْحُرُمُ وَرَجَعَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَاقْصِدُوا بَنِي عَامِرٍ فَإِنَّهُمْ قَرِيبٌ بِنَوَاحِي السُّلَّانِ .فَخَرَجُوا وَكَتَمُوا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا :خَرَجْنَا لِئَلَّا يَعْرِضَ أَحَدٌ لِلَطِيمَةِ الْمَلِكِ. فَلَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ عُكَاظَ عَلِمَتْ قُرَيْش بِحَالِهِمْ، فَأَرْسَلَ عبد الله بن جُدْعَانَ قَاصِدًا إِلَى بَنِي عَامِرٍ يُعْلِمُهُمُ الْخَبَرَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَهُمْ فَحَذِرُوا وَتَهَيَّأُوا لِلْحَرْبِ وَتَحَرَّزُوا وَوَضَعُوا الْعُيُونَ، وَعَادَ عَامِرٌ عَلَيْهِمْ عَامِرُ بن مَالِكٍ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ، وَأَقْبَلَ الْجَيْشُ فَالْتَقَوْا بِالسُّلَّانِ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا. وكانت نتيجة المعركة انتصار بني عامر.

يبدو أنَّ يومُ السُّلانِ كان مشهدًا مُكمّلًا لِلْاستِبدادِ النُّعماني، لكن في بُعْدِهِ الاقْتِصاديّ–العَسْكريّ. فَ (بَنو عامر)، الذين وُصِفُوا بأنَّهُم "لِقاحٌ لا يَدِينُونَ لِلْمُلُوكِ"، تَعَرَّضُوا لِحَمْلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ؛ لأنَّهُم اعْتَرَضُوا لَطِيمَةَ النُّعمان المُتَّجِهَةَ إلى عُكَاظٍ. وهنا تَظْهَرُ النَّزْعَةُ العُقُوبِيَّةُ السُّلْطَوِيَّةُ، التي لا تَتَوَرَّعُ عَنْ حَشْدِ الصَّنَائعِ والوَضَائعِ وضَبَّةَ وتَمِيمَ لِتَأْدِيبِ قَبِيلَةٍ مُتَحَرِّرَةٍ مِنَ التَّبَعِيَّةِ(ابن الأثير: ١: ٥٧١). لكن دَلالَةَ اللَّطِيمَةِ (القَافِلَةِ التِّجَارِيَّةِ) تَتَجَاوَزُ التِّجَارَةَ، فَهِي تُمَثِّلُ رَمْزًا لِامْتِدَادِ سُلْطَةِ الحِيرَةِ إلى عُمْقِ السُّوقِ العَرَبِيّ، وبِاعْتِرَاضِ بَني عامرَ عَلَيْهَا، جَرَى تَأْوِيلُ المَوْقِفِ سِياسِيًّا عَلَى أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّمَرُّدِ الرَّمْزِيّ.

كانت الاِسْتِجَابَةُ السُّلْطَانِيَّةُ عَبْرَ الإِغَارَةِ بَعْدَ اِنْتِهاءِ المَوْسِمِ الحَرَامِ، مَعَ إِخْفَاءِ نِيَّةِ القِتَالِ، وهذا يُمَثِّلُ خِدَاعًا سِيَاسِيًّا مَقْرُونًا بِانْتِهَازِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ تَهْدِفُ إِلَى ضَبْطِ المَجَالِ القَبَلِيّ ضِمْنَ مَوَازِينِ الهَيْمَنَةِ اللَّخْمِيَّةِ، لكن فَشَلَ الحَمْلَةِ أَمَامَ اسْتِبْسَالِ بَنِي عامر بِقِيَادَةِ مُلاعِبِ الأَسِنَّةِ (عامرِ بنِ الطُّفَيْل)، يَشِيرُ إِلَى مَحْدُودِيَّةِ السَّيطَرَةِ الاسْتِبْدَادِيَّةِ فِي مُقَابِلِ البِنْيَةِ القَبَلِيَّةِ المُتَمَاسِكَةِ، وأَنَّ عُسْفَ النُّعْمَانَ لَمْ يَكُن دَائِمَ النَّجَاحِ.

لَقَدْ جَسَّدَ (يَوْمُ السُّلّان)، شَكْلًا آخَرَ مِنَ الاسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيّ، هذِهِ المَرَّةَ بِتَوْظِيفِ جِهَازِ الدَّوْلَةِ العَسْكَرِيّ وَالاقْتِصَادِيّ لِإِخْضَاعِ قَبَائِلَ رَافِضَةٍ لِلسُّلْطَةِ المَرْكَزِيَّةِ، مِثْلَ بَنِي عامرَ، بِتَعَرُّضِهِمْ لِقَافِلَةٍ تِجَارِيَّةٍ، فَلَمْ يَرُقْ لَهُ هذَا الخَرْقُ لِسُلْطَتِهِ الاقْتِصَادِيَّةِ، فَبَادَرَ إِلَى تَعْبِئَةِ جَيْشٍ ضَخْمٍ، وَاسْتِنْفَارٍ وَاسِعٍ لِلقَبَائِلِ الخَاضِعَةِ لَهُ، لَكِنَّهُ اخْتَارَ التَّخَفِّي وَرَاءَ حِيلَةٍ دِبْلُومَاسِيَّةٍ – قَافِلَةٌ لَطِيمَةٍ – يُخْفِي بِهَا نِيَّةَ القِتَالِ إِلَى حِينِ اِنْتِهَاءِ مَوْسِمِ السُّوقِ.

هذَا التَّخْطِيطُ يُمَثِّلُ بُعْدًا آخَرَ مِنَ الاسْتِبْدَادِ: العُنْفُ المُؤَسَّسِيُّ المُقَنَّعُ، أَي تَوْظِيفُ أَدَوَاتِ الاقْتِصَادِ وَالسِّيَاسَةِ العَامَّةِ سِتَارًا لأَعْمَالِ القَمْعِ، فِي اسْتِنْسَاخٍ لِمُمَارَسَاتِ القُوَّةِ لِلدَّوْلَةِ السَّاسَانِيَّةِ التي كانَتْ تُوَجِّهُ الدَّوْلَةَ اللَّخْمِيَّةَ بِوَصْفِهَا وَكِيلَةً مَحَلِّيَّةً لِلهَيْمَنَةِ.

المُثِيرُ أَنَّ قُرَيْشًا، التي لَمْ تَكُن تَحْتَ طَاعَةٍ مُبَاشِرَةٍ لِـ (النُّعْمَان)، سَعَتْ لِتَحْذِيرِ بَنِي عامرَ، وَهذَا ما يَشِي بِأَنَّ صِراعَهُ مَعَ بَنِي عامرَ كانَ يَحْمِلُ أَبْعَادًا أَوْسَعَ تَتَعَلَّقُ بِالتَّوَازُنَاتِ السِّياسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ.

يَتَّضِحُ مِنَ الرِّوَايَتَيْنِ اللَّتَيْنِ اسْتَعْرَضَتَا (يَوْمَي طِخْفَة وَالسُّلّان)، أَنَّ النُّعْمَانَ بنَ المِنْذِرِ مَارَسَ اسْتِبْدَادًا مُرَكَّبًا:

١– اِسْتِبْدَادٌ رَمْزِيٌّ– سِيَاسِيٌّ: بِمُحَاوَلَتِهِ مُصادرة المَنَاصِبِ ذَاتِ الدَّلَالَةِ الرَّمْزِيَّةِ (الرِّدَافَةِ).

٢– اِسْتِبْدَادٌ اقْتِصَادِيٌّ– عَسْكَرِيٌّ: عَبْرَ عَسْكَرَةِ القَوافِلِ وَتَصْفِيَةِ الحِسَابَاتِ القَبَلِيَّةِ تَحْتَ غِطَاءِ التِّجَارَةِ.

٣– تَوْظِيفُ البِنْيَةِ العَشِيرِيَّةِ: بِاسْتِغْلَالِ الصَّنَائِعِ وَالوَضَائِعِ وَالقَبَائِلِ التَّابِعَةِ، مَا يَكْشِفُ اسْتِغْلَالَهُ لِلْبُنَى التَّقْلِيدِيَّةِ لِتَكْرِيسِ حُكْمٍ مَرْكَزِيٍّ يَزْعُمُ المَشْرُوعِيَّةَ بِاسْمِ الفُرُسِ (كِسْرَى أَبْرَوِيزَ).

وَكُلُّ ذَلِكَ يُثْبِتُ أَنَّ سُلْطَةَ النُّعمان لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ زِعَامَةٍ مَحَلِّيَّةٍ، بَلْ سُلْطَةٌ مُؤَدلَجَةٌ بِالْكِسْرَوِيَّةِ، قَائِمَةٌ عَلَى اسْتِنْسَاخِ أَنْماطِ الْحُكْمِ الْكِسْرَوِيّ، مَعَ تَمْوِيهِهَا بِالْأَعْرَافِ وَالْكَرَمِ وَالهيبَةِ، وَهُوَ مِنْ صُوَرِ الاسْتِبْدَادِ فِي الْمَشْهَدِ الْعَرَبِيّ قَبْلَ الْإِسْلَامِ.

وَقَدْ أَثَّرَتِ الإِخْفَاقَاتُ الْعَسْكَرِيَّةُ فِي شَرْعِيَّةِ النُّعمان، فَعَلَى الرَّغْمِ مِن اسْتِبْدَادِهِ فِي الدَّاخِلِ، إِلَّا أَنَّهُ عَانَى مِنْ هَزَائِمَ مُتَكَرِّرَةٍ عَلَى الْمُسْتَوَى الْعَسْكَرِيّ، لَا سِيَّمَا أَمَامَ قَبِيلَةِ بَنِي عَامِرٍ. فَقَدْ نَجَحَ عَامِرُ بن مَالِكٍ (مُلاعِبُ الأَسِنَّةِ) فِي إِلْحاقِ أَضْرَارٍ جَسِيمَةٍ بِجُيُوشِ النُّعمان، وَتَمَكَّنَ مِنْ إِصَابَةِ ضِرَارِ بْنِ عَمْرو الْكِلْبِيّ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ (ابن الأثير: ١: ٥٧١).

إِذْ شَهِدَتْ سِيرَةُ النُّعمان بْنِ المُنذِر سِلْسِلَةً مِنَ الإِخْفَاقَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ تُجَاهَ بَنِي عَامِرٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِعَانَتِهِ بِقَبَائِلَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ مَعْدٍ، مِثْلَ: بَنِي كِلَابٍ وَيَرْبُوعٍ، فَقَدْ خَرَجَتْ جُيُوشُهُا بِقِيَادَةِ وبْرَةَ بْنِ رُومَانِسَ الْكِلْبِيّ، وَمَعَهُ شُيُوخٌ مُحَارِبُونَ، مِنْهُمْ: ضِرَارُ بن عَمْرُو، إِلَّا أَنَّ بَنِي عَامِرٍ كَانُوا قَدِ اسْتَعَدُّوا لِلْمُوَاجَهَةِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ طَعَنَ عَامِرُ بن مَالِكٍ الْمُلَقَّبُ بِـ (مُلاعِبِ الأَسِنَّةِ) ضِرَارَ بْنَ عَمْرٍو فِي ثَلَاثِ دَفَعَاتٍ أَسْقَطَهُ عَنْ فَرَسِهِ، لَوْلَا تَدَخُّلُ أَبْنَائِهِ الَّذِينَ أَعَانُوهُ عَلَى النُّهُوضِ، حَتَّى قَالَ لَهُ خَصْمُهُ: "وَيْلَكَ، أَحِلْنِي عَلَى رَجُلٍ كَرِيمٍ(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٤٤).

وَفِي حَادِثَةٍ أُخْرَى، أُسِرَ حُبَيْشُ بن دُلَفٍ الضَّبِيُّ مِنْ قِبَلِ عَامِرِ بْنِ مَالِكٍ بَعْدَ قِتَالٍ عَنِيفٍ، فَلَمَّا كُشِفَ عَنْ وَجْهِهِ اسْتَهَانَ بِهِ لِمَظْهَرِهِ الأَسْوَدِ الدَّمِيمِ، وَأَسَرَّهُ، وَشَدَّ وَثَاقَهُ، وَخَشِيَ أَنْ يَقْتُلَهُ عَامِرٌ، فَقَالَ لَهُ: "إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ اللَّبَنَ، فَقَدْ أَصَبْتَ لَبَنًا

كَثِيرًا"، فافتدى نَفْسَهُ بِـ (٤٠٠) بَعِيرٍ؛ مِمَّا يُظْهِرُ كَيْفَ أَنَّ نَتَائِجَ الْمَعَارِكِ فِي عَهْدِ النُّعمان لَمْ تَكُنْ تُحْسَمُ لِصَالِحِهِ، بَلْ تَنْتَهِي غَالِبًا بِفِدْيَةٍ مُذِلَّةٍ، وَتَفَكُّكِ هَيْبَةِ السُّلْطَةِ أَمَامَ بَنِي عَامِرٍ(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٤٧).

وَشَكَّلَتْ قِصَّةُ ابْتِيَاعِ الأَسْرَى مِنَ السُّوقِ لِقَتْلِهِمْ مِنْ قِبَلِ النُّعمان بْنِ المُنذِر مِنْ أَوْجُهِ الْفَشَلِ الرَّمْزِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ الَّتِي سَجَّلَهَا الْمُعَاصِرُونَ عَلَيْهِ، إِذْ إِنَّهُ ابْتَاعَ أَسْرَى مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ مِنْ سُوقِ عكاظَ لِيَقْتُلَهُمْ بَدَلًا مِنْ أَسْرِهِمْ فِي الْمَيْدَانِ، ثُمَّ تَفَاوَضَ فِي شأنِهِم وَفْدٌ مِنْ بَنِي جَعْفَرٍ، كانَ مِنْهُم لَبِيدُ بن رُبَيْعَةَ وَعَوْفُ بن الأَحُوصِ، فَهَدَّدَهُمُ النُّعْمَانُ بِالْقَتْلِ قَائِلًا: "لَا قُمْتُ مِنْ مَجْلِسِي، وَلَا شَرِبْتُ كَأْسِي، وَلَا بُلْتُ فِي مَثَانَتِي حَتَّى تُعْطُونِي رِضَايَ!"، وَهُوَ قَسَمٌ عَدَّهُ النُّقَّادُ ضَرْبًا مِنَ السُّفَاهَةِ اللَّفْظِيَّةِ لَا يَلِيقُ بِمَلِكِ الْعَرَبِ، بَلْ "لَا يُسْمَعُ مِنْ أَرَاذِلِ النَّاسِ وَأَوْبَاشِهِمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَلْبِسُ التَّاجَ؟"(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٤٧–٤٤٨).

ثُمَّ إِنَّ تَرَاجُعَهُ عَنْ قَرَارِهِ بَعْدَ تَدَخُّلِ لَبِيدَ بِالْقَوْلِ وَالْعَرْضِ كَشَفَ مَرَّةً أُخْرَى عَنْ ضَعْفٍ فِي الْقَرَارِ، وَعَجْزٍ عَنْ الانْتِصَارِ عَلَى قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ (بَنِي عَامِرٍ)، على الرَّغْمَ من كَوْنِهِ مَلِكَ الْعَرَبِ؛ مِمَّا يَشِيرُ إِلَى أَزْمَةٍ مَشْرُوعِيَّةٍ مُزْمِنَةٍ فِي سُلْطَتِهِ. لَمْ يَكُنِ الْحِصَارُ أَوِ الْحَرْبُ وَحْدَهَا كَافِيَةً لِإِضْعَافِ النُّعمان، بَلْ فَشِلَتْ سِيَاسَتُهُ فِي تَأْمِينِ الْوَلَاءَاتِ الْقَبَلِيَّةِ، فَتَكَرَّرَتْ حَالَاتُ الأَسْرِ وَالْفِدْيَةِ بِاهِظَةِ الثَّمَنِ، مِثْلَ الأَسْرَى الَّذِينَ أُفْرِجَ عَنْهُمْ بِأَثْمَانٍ كَبِيرَةٍ(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ١٥١– ١٥٢).

إِنَّ ابْتِيَاعَ النُّعمان لِأَسْرَى مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ مِنْ سُوقِ عكَاظَ لِيَقْتُلَهُمْ بَدَلًا مِنْ أَسْرِهِمْ فِي الْمَيْدَانِ(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ١٥٢)؛ لَهُ دَلَالَةٌ عَلَى هَزِيمَتِهِ الرَّمْزِيَّةِ وَغِيَابِ الْقُدْرَةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَى السَّيْطَرَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَهُوَ فِعْلٌ يُجَسِّدُ اسْتِسْلَامًا ذَلِيلًا، وَتَفَاهُمًا غَيْرَ مُبَاشِرٍ عَلَى أَنَّ الْقُوَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي الْقَتْلِ الْمُبَاشِرِ، بَلْ فِي التَّحَكُّمِ فِي الرُّمُوزِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَمْنَحُ الْحَاكِمَ شَرْعِيَّتَهُ.

ثَمَّةَ مُوازنةٌ لافتةٌ في طريقةِ التعاملِ مع الأسرى بينَ ما نُقِلَ عن النُّعمان بنِ المُنذرِ، وما فعلهُ سيفُ الدولةِ بن مَزيدٍ الأَسَديّ، يُقدِّمُها المؤرخ (أبو البقاءِ)، بوصفِها مرآةً تُجسِّدُ أخلاقَ السُّلطةِ ومكانةَ القبيلةِ. ففي مقابلِ صنيعِ النُّعمان القائمِ على التهديدِ والتنكيلِ، يُوردُ المؤرِّخُ نفسُهُ مشهدًا مُضادًّا تمامًا للملكِ سيفِ الدولةِ، الذي بَذَلَ الغاليَ والنفيسَ لفداءِ أسرى بني عامر؛ فافتداهُم أوّلًا من مالِهِ الخاصّ، ثمّ من خزائنِهِ، ثمّ من آنيةِ بيتِهِ، ثمّ من الكُراعِ والسِّلاح، حتى اقترضَ لأجلِهم من أصحابِهِ وحشمِهِ، ولم يهدأ له بالٌ حتى أُطلقوا جميعًا. وكان الأتراكُ قد عرضوا شراءَهم، فضربوا الأسرى وأهانوا كرامتَهم، حتى لم يجدوا ملاذًا إلا أن يقولوا: "خُذونا إلى معسكرِ سيفِ الدولةِ، فإنَّهُ يفتدينا"، حتى قيل: "كانوا يُجلبون إليه كما تُجلبُ الأنعامُ"(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٤٩– ٤٥٠)، ويكشفُ هذا كيف يمكنُ للزعيمِ أن يحوّلَ ضعفَ الحاكمِ إلى قوةٍ أخلاقيةٍ وشعبيةٍ، ويبرزُ بوضوحٍ أنّ السّلطةَ في المجتمعاتِ العربيةِ القديمةِ لم تكن مجردِ ممارسةٍ قسريةٍ، بل منظومةٌ معقدةٌ من الرموزِ والقيمِ التي تربطُ الحاكمَ بالمحكومِ عبرَ الوفاءِ والكرامةِ المشتركةِ. ويكشفُ هذا التباينُ كيف يمكنُ لزعماءَ كالنعمانِ أن يفقدوا شرعيتهم ويظهروا ضعفاء أمام نماذجَ كسيفِ الدولةِ.

ومن مظاهرِ الاستبدادِ السّياسيّ والعسكريّ: مارس النعمانُ سلطةً مطلقةً من دون مشاركةٍ فعليةٍ أو مؤسساتٍ تشاركيةٍ، وهذا يبرزُ في عدم وجودِ مؤشراتٍ على أنّ نظام حكمهِ اعتمدَ على مشورةٍ فعليةٍ من قبائلَ أو نخبٍ سياسيةٍ. هذه السّيطرةُ الحصريّةُ على مفاصلِ الحكمِ تُظهرُ طابعًا استبداديًا مبنيًا على السّلطةِ الفرديّةِ.

المبحث الثالث :

مَقْتَلُ عَدِيّ بنِ زَيْدٍ وتَداعِياتُهُ على العَلاقَةِ بَيْنَ النُّعمان وكِسْرَى

أولاً: مَقْتَلُ عَدِيّ بنِ زَيْدٍ

نَشَأَ عَدِيُّ بن زَيْدٍ في الحِيرَةِ وَسْطَ بِيئَةٍ أُسَرِيَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ ذاتِ امتِدادٍ إلى اليَمامَةِ، وهو مِن أُسْرَةٍ اشْتُهِرَتْ بالعِلْمِ والكِتابَةِ، إذْ عَلَّمَهُ والِدُهُ زَيْدٌ الكِتابَةَ مُبَكِّرًا، ثُمَّ الْتَحَقَ بِخِدْمَةِ كِسْرَى كاتِبًا ومُسْتَشارًا(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٤). وقد حَظِيَ بِثِقَةِ مَلِكِ الفُرْسِ؛ مِمَّا جَعَلَهُ وَسِيطًا فاعِلًا في تَعْيِينِ النُّعمان بنِ المُنذِرِ مَلِكًا على الحِيرَةِ خَلَفًا لأَبِيهِ المُنذِرِ، على الرَّغْمِ مِن كَوْنِهِ أَصْغَرَ إِخْوَتِهِ. وتَزَوَّجَ عَدِيٌّ مِن هِندٍ بنتِ النُّعمان؛ مِمَّا عَمَّقَ رَوابِطَهُ السِّياسِيَّةَ والأُسَرِيَّةَ بالبَيْتِ المَلَكِيِّ اللَّخْمِيِّ (سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٤).

غَيْرَ أنَّ هذا النُّفُوذَ أَثارَ حَفِيظَةَ إِخْوَةِ النُّعمان وأَبْناءِ الأُسْرَةِ، الَّذين أَوْغَرُوا صَدْرَ النُّعمان على عَدِيّ، مُتَّهِمِينَ إِيّاهُ بأَنَّهُ يَقُولُ إنَّ "النُّعْمانَ عامِلٌ مِن قِبَلِهِ"، أَي مُجَرَّدُ وَكِيلٍ عن نُفُوذِهِ هو. فانْقَلَبَ عليهِ النُّعْمانُ، وسَجَنَهُ، على الرَّغْمِ مِن تَوَسُّلِهِ ومُراسَلَتِهِ لَهُ شِعْرًا ومَدْحًا، لكِنْ مِن دُونِ جَدْوَى(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٤).

تُشِيرُ الرِّوايَةُ إلى أنَّ النُّعْمانَ أَقْدَمَ على قَتْلِ عَدِيّ خُفْيَةً بَعْدَ أنْ أشارَ عليهِ خُصُومُهُ بِذلِكَ، ظَنًّا أَنَّهُ يُخَلِّصُ نَفْسَهُ مِن خَطَرٍ مُسْتَتِرٍ. لكِنَّ فِعْلَتَهُ أَثارَتْ غَضَبَ كِسْرَى أَبْرُوَيْز، لا سِيَّما وأَنَّهُ كانَ قد أَرْسَلَ رَسُولًا لِإنْقاذِ عَدِيّ، فَوَجَدَهُ قد ماتَ لِلتَّوِّ. هُنا، تَحَوَّلَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ كِسْرَى والنُّعمان مِن عَلاقَةِ وَلاءٍ إلى عَلاقَةِ شَكٍّ وانتِقامٍ. واللَّافِتُ أنَّ كِسْرَى لَمْ يَنْسَ حادِثَةً سابِقَةً حينَ طَلَبَ مِن النُّعمان فَرَسَهُ اليَحْمُومَ، فَرَفَضَ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيّاه؛ مِمَّا عَمَّقَ الضَّغِينَةَ الكامِنَةَ في نَفْسِ الحاكِمِ الفارِسِيّ(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٥).

ثانياً: زِيدُ بن عَدِيّ وَالانْتِقَالُ مِنَ الوِسَاطَةِ إِلَى الثَّأْرِ السِّيَاسِيّ

بَعْدَ مَقْتَلِ وَالِدِ زِيدٍ، زُجَّ فِي المَشْهَدِ وَرِيثًا مُحْتَمَلًا لِوَظِيفَتِهِ، وَلَكِنَّهُ سَرِيعًا تَحَوَّلَ إِلَى فَاعِلٍ انْتِقَامِيّ. أَرْسَلَهُ النَّعْمَان إِلَى كِسْرَى حَامِلًا اعْتِذَارَهُ وَخِطَابَهُ المُبَرِّرَ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ بَدِيلًا وَثِيقًا عَنْ أَبِيهِ؛ مِمَّا ضَمَنَ لَهُ مَوْقِعًا فِي البِلَاطِ السَّاسَانِيّ(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٥).

لَكِنَّ زِيدًا لَمْ يَنْسَ مَقْتَلَ أَبِيهِ، فَعَمِلَ عَلَى التَّحْرِيضِ عَلَى النَّعْمَانِ، مُسْتَغِلًّا الطَّبِيعَةَ الحَسَّاسَةَ لِلْعَلَاقَةِ بَيْنَ كِسْرَى وَالعَرَبِ. وَقَدْ أَدَّى دَوْرًا خَطِيرًا حِين وَصَفَ نِسَاءَ بَنِي لَخْمٍ لِكِسْرَى، فَدَفَعَ الْآخِرَ إِلَى طَلَبِ صَادِمٍ: أَنْ يَزَوِّجَهُ النَّعْمَان إِحْدَى نِسَائِهِ. رَفَضَ النَّعْمَان ذَلِكَ، ووَصَفَهُ بِالْعَارِ وَالشَّنَاعَةِ الَّتِي لَا تُقْبَلُ عِنْدَ العَرَبِ، وَوَاجَهَ زِيدًا بِقَوْلِهِ: "أَمَا كَانَ لِـ (أَبْرُوَيْزَ) فِي مَهَا السَّوَادِ كِفَايَةٌ؟"، وَهُوَ تَعْبِيرٌ يَحْمِلُ احْتِقَارًا وَاضِحًا لِلمَجَالِ الفَارِسِيّ. نَقَلَ زِيدُ كَلَامَ النَّعْمَانِ إِلَى كِسْرَى بَعْدَ أَنْ حَرَّفَهُ عَمْدًا وَزَادَ عَلَيْهِ ازْدِرَاءً، مِمَّا عَجَّلَ بِقَرَارِ الانْتِقَامِ(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٦). عِنْدَ مَطَالَبَةِ كِسْرَى أَبْرُوَيْزَ بِالزَّوَاجِ مِنْ إِحْدَى بَنَاتِ النَّعْمَانِ، تَجَلَّتْ أَزْمَةُ الهُوِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْمَلِكِ العَرَبِيّ. رَفْضُ النَّعْمَانِ التَّزَوُّجَ عَادَّهُ عَارًا عَلَى العَرَبِ، وَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ صَرَاحَةً لِـ (زِيدِ بْنِ عَدِيّ): "قَدْ عَلِمْتَ مَا عَلَى العَرَبِ مِنَ العَارِ وَالشَّنَاعَةِ بِتَزْوِيجِ الأَعَاجِمِ"(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٦).

لَمْ يَكُنْ رَفْضُ المَصَاهِرَةِ مَوْقِفًا اجتماعِيًّا فَقَطْ، بَلْ كان إِعْلَانًا رَمْزِيًّا عَنْ عَدَمِ انْدِمَاجِ السُّلْطَةِ العَرَبِيَّةِ فِي البِنْيَةِ الفَارِسِيَّةِ. وَمَثَّلَ زِيدُ بن عَدِيّ فِي هَذَا السِّياقِ نَمُوذَجَ "الوَسِيطِ المُنْدَسّ"، حَرَّفَ كَلَامَ النَّعْمَانِ وَأَبْلَغَهُ إِلَى كِسْرَى فِي رِوَايَةٍ مُهِينَةٍ، زَاعِمًا أَنَّ النُّعْمَان وَصَفَ بَنَاتِ كَسْرَى بِـ"بَقَرِ السَّوَادِ" – وَهِيَ كِذْبَةٌ وَظِيفَتُهَا إِذْكَاءُ الغَضَبِ الكِسْرَوِيّ.

يُمْثِّلُ مَقْتَلُ عَدِيّ بْنِ زَيْدٍ الْعِبَادِيّ ذُرْوَةَ الاسْتِبْدَادِ فِي عَهْدِ النَّعْمَانِ، فَقَدْ كَانَ عَدِيًّا شَاعِرًا وَمُسْتَشَارًا وَمُتَرْجِمًا لَدَى كُسْرَى، وَأَحَدَ أَعْمِدَةِ السِّيَاسَةِ فِي الْحِيرَةِ. بَلْ كَانَ هُوَ الَّذِي رَشَّحَ النُّعْمَان لِلْمُلْكِ، وَأَقْنَعَ كِسْرَى بِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الآخِرَ – بِحَسَبِ الرِّوَايَةِ – "أَذَمُّهُمْ وَأَقْبَحُهُمْ"(الدينوري: ١٩٩٢: ١: ٦٤٩) لكن النُّعْمَان، إِذْ تَمَكَّنَ، اتَّهَمَهُ بِالْخِيَانَةِ وَسَجَنَهُ ثُمَّ قَتَلَهُ، فِي نَمُوذَجٍ صَارِخٍ لِنِكْرَانِ الْجَمِيلِ وَخِيَانَةِ الْوَلَاءِ السِّيَاسِيّ. يَقُولُ أَحَدُ الْحُكَمَاءِ: "شَرُّ الْمُلُوكِ مَن خَافَهُ الْبَرِيءُ"، وَفِي تَحْلِيلٍ أَكْثَرَ عُمقًا، يَصِفُ أَحَدُهُمْ الْفِعْلَ بِأَنَّهُ :"يَنْطَوِي عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقَبَائِحِ، فِيهَا الْبَغْيُ وَالظُّلْمُ وَخِلَافُ مَا تَقْتَضِيهِ حُسْنُ سِيَاسَةِ الْمُلُوكِ"(أبو البقاء: ١٩٨٤: ١: ٤٦٩)، هَكَذَا، يُصْبِحُ مَقْتَلُ عَدِيّ لَيْسَ فَقَطْ حَادِثَةً مَأْسَوِيَّةً، بَلْ مِثَالٌ لِتَفَكُّكِ الأَعْرَافِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ فِي بِلَاطِ الْحِيرَةِ، إِذْ يُغْتَالُ الشَّاعِرُ وَالْمُسْتَشَارُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَّرَ الْمَلِكَ بِنِهَايَةِ مَن سَبَقُوهُ، وَتَحَوَّلَ مِنْ رَمْزٍ لِلْوَفَاءِ إِلَى ضَحِيَّةٍ لِمَزَاجِ الْحَاكِمِ وَهَشَاشَةِ الْحُكْمِ.

ثالثاً: النُّعْمَان فِي مُوَاجَهَةِ المَصِيرِ مِنَ البَادِيَةِ إِلَى المَدَائِنِ

بَعْدَمَا أَحَسَّ النُّعْمَان بِخَطَرٍ دَاهِمٍ، فَرَّ مِنَ الحِيرَةِ مَعَ عَائِلَتِهِ وَأَثْقَالِهِ، وَلَجَأَ أَوَّلًا إِلَى قَبَائِلِ طَيِّ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُوفُوا بِعَهْدِهِ، فَانْتَقَلَ إِلَى بَنِي رَوَاحَةَ الَّذِينَ أَجَارُوهُ، ثُمَّ مَلَّ حَيَاةَ البَادِيَةِ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ (المُتَجَرِّدَةُ) أَنْ يَذْهَبَ نَفْسَهُ إِلَى كِسْرَى لِيَسْتَعْطِفَهُ. وَلَكِنْ حِينَ وَصَلَ المَدَائِنَ، أَدْرَكَ أَنَّهُ وَاقِعٌ فِي مَكِيدَةٍ، لا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ مَرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى صَفٍّ مِنَ الجَوَارِي قُلْنَ لَهُ تَهْكُمًا: "أَمَا فِينَا لِلْمَلِكِ غَنَاءٌ عَنْ بَقَرِ السَّوَادِ؟"، وَهِيَ عِبَارَةٌ تَشِيرُ إِلَى اسْتِهْزَاءِ مُهِينٍ بِكَرَامَةِ العَرَبِ(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٧)، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَاجَهَهُ زِيدُ بن عَدِيّ بِجُمْلَتِهِ الشَّهِيرَةِ: "أَخَّيْتُ لَكَ أَخِيَّةً لَا يَقْطَعُهَا المَهْرُ الأَرِنُّ"، أَيْ أَنَّهُ أَوْقَعَهُ فِي شَرَكٍ لَا فِكَاءَ مِنْهُ. فَحَبَسَهُ كِسْرَى أَوَّلًا فِي سَابَاط، ثُمَّ أَمَرَ بِإِلْقَائِهِ تَحْتَ أَقْدَامِ الفِيلَةِ حَتَّى مَاتَ، وَقِيلَ إِنَّهُ مَاتَ بِمَرَضِ الطَّاعُونِ فِي خَانِقِينَ، وَلَكِنَّ الرِّوَايَةَ الأُولَى أَصَحُّ(سبط ابن الجوزي: ٢٠١٣: ٢: ٤٧٧).

النتائج

يمكن تلخيص أَهَمّ النتائج الّتي تَوَصَّلَ إليها البحث، بالآتي:

١- كانت بِنْيَةُ السُّلْطَةِ في الحِيرَةِ أُنْمُوذَجًا سُلْطَوِيًّا مُرَكَّبًا، يَجْمَعُ بينَ الاستِبْدادِ السِّياسِيّ الدّاخِلِيّ والارْتِهَانِ الخارِجِيّ لِلهَيْمَنَةِ الفارِسِيَّة، إِذْ تَمَرْكَزَ القَرارُ بِيَدِ النُّعمان ضِمْنَ شَبَكَةٍ مِنَ التَّوازُناتِ القَبَلِيَّةِ وَالخِطابَاتِ الرَّمْزِيَّةِ وَالمِعْمارِيَّةِ.

٢- اتَّخَذَ الاستِبْدادُ في عَهْدِ النُّعمان أَشْكالًا رَمْزِيَّةً وَطَقْسِيَّة، تَمَثَّلَتْ في مُمارَسَةِ العُنْفِ المُقَنَّنِ (يَوْمِ البُؤْسِ)، وَاسْتِعْرَاضِ النِّعْمَةِ السُّلْطَوِيَّةِ (يَوْمِ النَّعِيمِ)؛ مِمّا جَعَلَ طُقُوسَ الحُكْمِ أَداةً لِتَكْرِيسِ الرَّهْبَةِ وَالطَّاعَةِ في الوَعْيِ الجَمْعِيّ.

٣- لَمْ يَكُنِ المِعْمارُ السُّلْطَوِيُّ – الغَرِيَّيْنِ – حِيادِيًّا، بَلْ كان أَداةً لِلهَيْمَنَةِ البَصَرِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ، أَعادَتْ إِنْتاجَ السُّلْطَةِ في صُوَرٍ مادِّيَّةٍ مَلْمُوسَةٍ تُعَزِّزُ مَرْكَزِيَّةَ الحاكِمِ وَارْتِباطَهُ بِالمُقَدَّسِ وَالزَّمَنِ الأَبَدِيّ.

٤- مَثَّلَ سِجْنُ النُّوَيَّةِ بِنْيَةً عِقَابِيَّةً رَمْزِيَّةً لِلسُّلْطَةِ، تَكْشِفُ عَنْ نَسَقٍ سُلْطَوِيٍّ يُجَرِّمُ المُعَارِضِينَ أَوِ المَغْضُوبَ عَلَيْهِم؛ بَوَصْفِهِم تَهْدِيدًا لِلهَيْبَةِ لا لِلْعَدَالَةِ؛ مِمّا يَكْشِفُ بُعْدًا شُرْطَوِيًّا في بِنْيَةِ الدَّوْلَةِ.

٥- كانت سِياساتُ النُّعمان تِجاهَ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ حَذِرَةً وَتَكْتِيكِيَّة، إِذْ مارَسَ التَّوازُنَ بَيْنَ رِضَا الفُرْسِ وَتَطْوِيعِ الزَّعاماتِ القَبَلِيَّةِ لِضَمانِ بَقائِهِ، وَهُوَ مَا جَعَلَ وَلَاءَهُ مُزْدَوَجًا وَهَشًّا في آنٍ وَاحِدٍ.

٦- تُمَثِّلُ قَضِيَّةُ عَدِيّ بْنِ زَيْد مُفْتَرَقًا رَمْزِيًّا وَسِياسِيًّا، أَظْهَرَ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلِاسْتِبْدَادِ الشَّخْصِيّ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى أَزْمَةٍ دِبْلُومَاسِيَّةٍ مَعَ المَمْلَكَةِ (السَّاسَانِيِّينَ) الحَلِيفَةِ، وَيَكْشِفَ هَشَاشَةَ العَلَاقَةِ بَيْنَ البِلَاطِ اللَّخْمِيّ وَالدَّوْلَةِ السَّاسَانِيَّةِ.

٧- كانَ مَقْتَلُ النُّعمان بْنِ المُنذِر لَحْظَةَ انْهِيارٍ لِلنَّمُوذَجِ التَّابِعِ، وَبِدَايَةً لِتَمَرُّدٍ عَرَبِيّ رَمْزِيّ عَلَى الهَيْمَنَةِ السَّاسَانِيَّةِ؛ مَا مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِصُعُودِ تَصَوُّرَاتٍ جَدِيدَةٍ لِلسُّلْطَةِ وَالدِّينِ في جَزِيرَةِ العَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ.

٨- تُمَثِّلُ السُّلْطَةُ في الحِيرَةِ حَالَةً مُبَكِّرَةً مِنْ تَلَاقِي الاستِبْدادِ الرَّمْزِيّ وَالسِّياسِيّ وَالدِّينيّ، وَتَكْشِفُ عَنْ قَابِلِيَّةِ المُجْتَمَعَاتِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلَامِ لِبِنَاءِ هَيَاكِلِ سُلْطَةٍ مُعَقَّدَةٍ، لَكِنَّهَا عُرْضَةٌ لِلسُّقُوطِ تَحْتَ ضَغْطِ التَّنَاقُضَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالتَّبَعِيَّةِ الخَارِجِيَّةِ

المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧.
- البغدادي: عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- أبو البقاء هبة الله محمد بن نما الحلي (ت ق ٦هـ)، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، المحقق: (محمد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة) (كلية الآداب – الجامعة الأردنية)، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٨٤.
- الثعالبي: منصور عبد الملك الثعالبي (ت٤٢٩هـ) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة، (مصر – ١٩٦٥م).
- الدينوري: محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- الزبيدي: محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، بدولة الكويت، أعوام النشر: (١٩٦٥ – ٢٠٠١ م).
- الزَّوْزَني: الخطيب حسين بن أحمد بن حسين، أبو عبد الله (ت ٤٨٦هـ)، شرح القصائد السبع، دار إحياء التراث العربي.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٢.
- سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْ أُوغلي بن عبد الله (٥٨١ – ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، دار الرسالة العالمية، دمشق – سوريا، ٢٠١٣.
- الطبري: محمد بن جرير (٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
- ابن منظور: الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت ٧٣٣هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.
- الهمداني: الحسن بن أحمد يعقوب (ت٣٤٤هـ / ٩٥٥ م)، الإكليل، ج١، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (مطبعة السنة المحمدية، القاهرة،١٩٦٣م)، ج١.

المراجع:

- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ٢٠٠١م.
- صالح دراركة، الردافة على ضوء العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام في القرن السادس ومطلع القرن السابع للميلاد، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، ع١١، ١٩٨٣.
- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠).